نحو منهج سديد في تفسير القرآن المجيد

إعداد

ا. د/ نادى محمود حسن

أستاذ التفسير بجامعة الأزهر

كلية الدراسات الإسلامية بنين بأسوان

نحو منهج سديد في تفسير القرآن المجيد

نادى محمود حسن

قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية الدراسات الإسلامية للبنين، جامعة الأزهر، أسوان، جمهورية مصر العربية.

البريد الإلكتروني: hassannadi.islam.asw.b@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وآله وصحبه ومن والاه، وبعد: فهذا ملخص موجز عن معالم المنهج السديد في تفسير القرآن، وإلماعة خاطفة حاولت فيها قدر جهدي، إبراز أهم سمات المنهج السديد التي ينبغي أن تتوفر في التفسير بنوعيه: المأثور والتفسير بالرأي. والتأكيد على أن الاعتصام بحبل الله تعالى يتطلب العمل الجاد السريع فى إبراز أهداف القرآن الكريم بتفسير سهل واضح خال من الموضوعات والإسرائيليات والخلافات المذهبية، والتطبيقات العربية التي اتصلت به. وتقرير أن المسلمين اليوم محتاجون إلى من يقرب لهم مناهج الحق وسبل الخير التي جاءت في الكتاب العزيز، ومحتاجون إلى معرفة الهداية التي قررها القرآن ... فهم بحاجة إلى تفسير يسيرُ مؤلفه على نهج مستقيم رشيد، يُتجنّب فيه الاستطرادات النحوية، والمصطلحات البلاغية، والتفريعات الفقهية، إلا ما دعت إليه الضرورة، وغير ذلك مما أثبته في تضاعيف البحث، والله من وراء القصد وهو يهدى السبيل.

الكلمات المفتاحية: منهج، سديد، تفسير، مفسرين، المجيد.

Towards a sound approach in the interpretation of the glorious Qur'an

Nadi Mahmoud Hassan

Department of Interpretation and Quranic Sciences, Faculty of Islamic Studies, male, Al-Azhar University, Aswan, Egypt.

E-mail: hassannadi.islam.asw.b@azhar.edu.eg

Abstract:

Praise be to God, and may blessings and peace be upon the Messenger of God, his family, companions, and those behind him. This is a brief summary of the features of the correct approach to the interpretation of the Qur'an, and a cursory hint in which I tried as much as I can to highlight the most important features of the correct approach that should be available in interpretation within its two types: the dictum and the interpretation in opinion and affirming that the sticking to the rope which God Almighty stretches for us requires quick and serious work in highlighting the goals of the glorious Qur'an with an easy clear interpretation that is free of topics, Israeli bents and sectarian differences and the Arab applications that contacted him as well as a reporting that Muslims ,nowadays, need those who approve them of the methods of truth and the paths of goodness that came in the Holy Book. They also need to know the guidance established by the Qur'an. They are also a need to an interpretation on which its author follows on a wise straight way in which he avoids grammatical exaggerations, rhetorical terms, and jurisprudential branching except what is necessarily needed as well as other things that I proved in the contents of the research. God is behind the intention as he guides the path.

Keywords: approach, correct, interpretation, interpreters, glorious.

المقدّمة

إن الحمد لله ... نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره .. ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا .. من يهد الله فلا مضل له .. ومن يضلل فلا هادى له .. وأشهد ألاإله إلا الله وحده لاشريك له .. وأن محمداً عبده ورسوله .. وبعد:

فقد اجتهد علماء التفسير المخلصون قديماً وحديثاً فى تدبر القرآن الكريم والكشف عن أسراره ومعانيه، وكان من أصحاب التفاسير السابقة من أطال حتى أمل، ومنهم من اختصر حتى أخل، ومنهم من توسط بين هذا وذاك، وكان منهم من يميل إلى التفسير بالمأثور، ومنهم من يميل إلى التفسير بالرأى، ومنهم من يمزج التفسير بعلوم أخرى كثيرة، ومنهم من كتب تفسيره بأسلوب غامض، وعبارات مستغلقة على أهل عصرنا، ومن كتب بأسلوب واضح، ومنهم من ملأ تفسيره بالخلافات المذهبية، والمصطلاحات الفنية، والحشو والتعقيدات اللفظية. وقد عرض الإمام السيوطى صورة للألوان التفسيرية التى ظهرت فى المؤلفات وكتب التفاسير، واستغرقت حياة المسلمين إلى عصره، يتجلى من خلالها غلبت الجانب العلمى الذى برع فيه المفسر أثناء التفسير، والتى لاحاجة لها مطلقاً فى تفسير القرآن، ولاطائل تحتها، وتكشف لنا أيضاً كيف أن القرآن الكريم جُعل مصيدة للمذاهب والآراء، وتصيدها من ثنايا أقوال أصحابها مع خفائها !.

- والمسلمون اليوم بحاجة إلى تفسير بأسلوب عصرى سهل مبسط، واضح العبارة، وجيز لايخل ولايمل، تفسير يسيرُ مؤلفه على نهج

مستقيم رشيد، يُتجنّب فيه الاستطرادات النحوية، والمصطلحات البلاغية، والتفريعات الفقهية، إلا مادعت إليه الضرورة. كما ينبغى أن يراعى فى هذا التفسير المنشود والمنهج المأمول موضوع الهداية والعقيدة، بعيداً عن الجدل الفلسفى والمماحكات الكلامية. وهذا البحث الموسوم ب(**نحو منهج سديد فى تفسير القرآن المجيد**)، محاولة متواضعة لرسم معالم المنهج السديد والسبيل الأقوم فى تفسير القرآن الكريم، والله من وراء القصد وهو يهدى السبيل.

التعريف بمصطلح الدراسة:

فى هذه الإلماعة الخاطفة نلقى الضوء على الدلالات اللغوية والمعانى الاصطلاحية المتعلقة بمفردات عنوان الدراسة " نحو منهج سديد فى تفسير القرآن المجيد "، وهذه خطوة مهمة فى البحث العلمى، يتحدد من خلالها أهداف البحث وغايته، وسأكتفى بتعريف كلمتى(المنهج-السديد)؛ لكثرة ماكُتب فى تعريف(القرآن-التفسير)فأقول وبالله التوفيق: **المنهج فى اللغة**: النهج والمنهج والمنهاج: الطريق المستقيم الواضح، يقال: هذا نهجى لاأحيد عنه. وأنهج الطريق: استبان وصار نهجاً واضحاً بيناً. ونهجت الطريق: إذا سلكته، وفلان يستنهج سبيل فلان: أى يسلك مسلكه. ويقال: نهج الطريق: بينه وسلكه. ويطلق المنهج والمنهاج على الخطة المرسومة، ومنه منهاج الدراسة، ومنهاج التعليم، ونحوهما- جمع مناهج[1] .. ومن الناحية اللغوية يتقارب كثيراً معنى كل من كلمة: منهج و أسلوب. بيد أن كلمة (أسلوب) تشير إلى الجانب التطبيقى لخطة البحث، أما كلمة (المنهج) فالمعنى الاشتقاقى لها، يدل على الطريقة الواضحة، والمسلك البين الذى يؤدى إلى الغرض المطلوب.

السديد فى اللغة: يقال: سدَّ الشئ -سداداً وسَدوداً: استقام، وسد فلان: استقام فى قوله وفعله، وسدَّ قوله وفعله: استقام وأصاب فى منطقه، فهو سديد، والتسديد: التوفيق للسَّدَاد، وهو الصواب والقصد من القول والعمل.

(١) انظر: أساس البلاغة،لسان العرب،مختار الصحاح، المصباح المنير، المعجم الوسيط، مادة [نهج].

يقال: سدده الله: أى وفقه، ورجل مسدَّد: موفق للعمل، يعمل بالسَّداد والقصد. والسَّداد: ماسددت به خلالاً، يقال: سِدَاد القارورة: لما يسدَّ فمها، وسِدّاد من عَوَز، وسداد من عيش: لما يسد الحاجة. والسِّدد: الكلام الصحيح(١).

وفى الحديث: "قاربوا وسدِّدوا"(٢)، أى: اطلبوا بأعمالكم السَّداد والاستقامة، وهو القصد فى الأمر والعدل فيه. وقيل: الزموا السداد، وهو الصواب من غير إفراط ولاتفريط. قال أهل اللغة: السداد التوسط فى العمل(٣). ومنه الحديث: " مامن مؤمن يؤمن بالله ثم يسدد "(٤) أى: يقتصد فلا يَغْلو ولايسرف(٥).

وفى القرآن: (وَلْيَقُولُوا قَوْلا سَدِيدًا) [النساء: ٩]، أى: مستقيماً، من السَّداد وهو مايُسدُّ به من الخلل. وكل ماسددته من ثُلْمة ونحوها فهو مَسْدُود، وماكان من المعانى والأقوال فهو مفتوح(٦). ومن خلال هذه المعانى اللغوية يتضح لنا أن السَّداد: عبارة عن التوفيق فى العمل، والاستقامة والقصد فى الأمر، والصواب من القول والفعل. فكل شأن من شؤون الحياة أصاب فيه صاحبه الحق وتوخى فيه القصد فهو سديد.

---

(١) لسان العرب، المعجم الوسيط مادة[سدد]

(٢) رواه أحمد(١٦٧/٢)البخارى الإيمان: باب: الدين يسر.

(٣) انظر النهاية فى غريب الحديث(٣٥٢/٢) وفتح البارى لابن حجر(١١٧/١)

(٤) رواه أحمد(١٦/٤) ابن ماجه الزهد(٤٢٨٥)

(٥) النهاية فى غريب الجديث مادة[سدد](٣٥٢/٢)

(٦) عمدة الحفاظ مادة [سدد](٨٢/٢)

تمهيد

شروط وآداب لتحقيق المنهج السديد فى التفسير

هناك شروط وآداب يجب توفرها ؛ لتأصيل المنهج السديد فى تفسير القرآن الكريم، منها مايتعلق بالمفسر، ومنها مايتعلق بطريقة التفسير ومنهجه الذى يسير عليه.

- **أهم الشروط التى تتعلق بالمفسر:**

للتخصص فى أى فن مزيته، وهو ضرورة كبرى لايجادل فيها إلا الجاهلون خبثاء الطوية، وقديماً قال الإمام مالك: " ليس كل من أحب أن يجلس للحديث والفتيا جلس، حتى يتشاور فيه أهل الصلاح والفضل، فإن رأوه لذلك أهلا جلس ".

وقال: لو أن لى سلطاناً على من يفسر القرآن -يعنى برأيه -، لضربت رأسه[1].

فلكل ميدان سلاح، ولكل معركة عدة، وعدة المفسر الأولى مجموعة من العلوم يجب تحصيلها. والداخل إلى التفسير بدون هذا العتاد يكون: [كالساعى إلى الهيجاء بغير سلاح]. ومن ثم .. اشترط العلماء لمن يتصدى لتفسير القرآن أن يكون مؤهلاً بآليات التفسير وأدواته، وقد اختلف العلماء فى عدد العلوم التى يحتاج إليها المفسر، هل تنحصر فى عدد معين ؟. فقال بعضهم: إنه ينحصر فى خمسة عشر علماً، وقال الآخر منهم: إنه ينحصر فى

(١) حلية الأولياء رقم(٨٨٨٤)سير أعلام النبلاء(٨/٩٧)

أربعة وعشرين علماً، ومنهم من قال: لاينحصر فى عدد معين معلوم لنا. لكن الذى عليه الجمهور وعليه العمل هوالأول وإليك بيانها إجمالاً:

اللغة - علم النحو- علم التصريف - علم الاشتقاق- علم المعانى والبيان والبديع- علم القراءات- علم أصول الدين - علم أصول الفقه- علم أسباب النزول- علم الناسخ والمنسوخ- علم القصص- علم الأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم - علم الموهبة، وهو علم يورثه الله سبحانه لمن عمل بما علم، وإليه الإشارة فى قوله تعالى: ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ**﴾ [البقرة: ٢٨٢][(١)].

فهذه العلوم التى هى كالآلة للمفسر لايكون مفسراً إلا بتحصيلها، ولذا قال الكافيجى: فمن تكاملت له هذه العلوم خرج عن كونه مفسراً برأيه، ومن فاته بعض ذلك مما ليس بواجب معرفته فى تفسير القرآن، وأحسن من نفسه فى ذلك، واستعان بأربابه، واقتبس منهم، واستضاء بأقوالهم، لم يكن إن شاء الله من المفسرين برأيه[(٢)].

وألحق بعض العلماء بهذه العلوم المعرفة بأحوال العرب وعاداتهم عند نزول القرآن، كما ذكر ابن تيمية والشاطبى[(٣)]. ويمكن إدخال ذلك فى علم السيرة والتاريخ، واعتبر الإمام محمد عبده تحصيل المفسر لعلم أحوال البشر

(١) انظر: البرهان للزركشى (٢٨٩/٢) الإتقان (١٢٠٩/٢) التحبير (ص٣٢٧) كلاهما للسيوطى.

(٢) انظر: التيسير فى قواعد علم التفسير (ص١٤٨).

(٣) الموافقات (٣٥١/٣) الإيمان لابن تيمية (ص١٠١).

والسيرة مع علوم أخرى يحقق المرتبة العليا فى التفسير[1]. فعلى المفسر أن يكون ملماً بعادات العرب فى الجاهلية، واقفاً على حياتهم الاجتماعية ؛ لأننا نجد فى الكتاب آيات تتعرض إلى بعض أمورهم، فإذا لم يكن المفسر واقفاً على ماذكرنا لم يستطع أن يفهم معانى الآيات، ولاأن يتذوقها، ولاأن ينفذ إلى مغازيها[2]. وقد تضمنت بعض النقول عن العلماء من معرفة شروط المفسر ثلاثة شروط لم ترد فى الشروط المعتبرة الخمسة عشر التى عدّها السيوطى وهى:

معرفة المفسر أسباب الاختلاف فى التفسير، ومعرفة المفسرين، ومعرفة كتب التفسير. وهذا مايفهم من كلام ابن تيمية فى مقدمته فى أصول التفسير(ص٣٥-٣٨، ٣٩، ٤٩، ٥٥-٥٨). ويلاحظ فى هذه العلوم التى يجب توفرها فيمن يقوم بالتفسير لم تكن تشمل غير ماكان معروفاً من علوم فى ذلك الوقت وهى خمسة عشر علماً ذكرت على سبيل الحصر، ولم نجد من بينها علم التاريخ، وعلم الاجتماع، وكل العلوم التى استحدثت فيما بعد، وهى علوم لاشك فى ضرورتها لعملية التفسير ؛ نظراً لأن القرآن الكريم يشتمل فضلا عن الأمور اللغوية والفقهية، على أمور أخرى تدخل فى مجال العلوم المختلفة، بحيث إن المفسر لايستطيع أن يتصدى لها بالتفسير وهو مطمئن إلا إذا كان جامعاً لهذه العلوم، وقد أشار إلى ذلك بعض المحققين المعتبرين من علماء العصر بقوله: " ... وإذا كان العلم فى تقدم مستمر، إذ جدت قضايا هامة فى علوم النفس والاجتماع والتاريخ، فإن واجب المفسر

(١) انظر: مقدمة تفسير المنار (١/٢١).

(٢) بحوث فى أصول التفسير د/مجمد لطفى الصباغ(ص ١٨٧)

المعاصر أن يدرس - على نحو عام - علوم العصر دراسة المثقف لا المتخصص ؛ لأن ذلك مما يساعده على إقناع من يصرفون وجوههم عن القرآن إلى بوارق فاتنة تضيء ثم تختفى، ولكنها تجذب الأغرار، وتطيل حولها اللجاج[1].

غير أنه يلاحظ عدم وجود المفسر الذى يجمع بين العلوم الكثيرة التى اشترطها العلماء فيمن يقوم بالتفسير، وإنما كان المفسرون إما نحويين، أو متكلمين، أو فقهاء، أو إخباريين، فغلب على تفاسيرهم هذا العلم أو ذاك وأهمل ماعداه. وإيماناً بماذُكر، ورغبة فى إيجاد تفسير يفى بحاجة العصر ومستجداته رأى بعض المتأخرين من المفسرين وغيرهم أن يضاف لهذه العلوم الخمسة عشر، علوماً أخرى: كالعلوم الاجتماعية والعقلية والكونية، ومايتصل بالثقافة العامة، فالتاريخ والجغرافيا والاجتماع وعلم النفس والفلك .. كل هذه العلوم مما يساعد على تفسير القرآن تفسيراً يتصل بحياة الناس[2].

ولابد من الإشارة هنا إلى مسألة: وهى التوازن فى النظر إلى حاجة المفسر لبعض العلوم التى ينص عليها العلماء ؛ كعلم النحو، وعلوم البلاغة، وعلم الفقه، وغيرها. ومعنى ذلك ألا يُجعل علمٌ من هذه العلوم هو الأصل فى التفسير، وأن من عَلِمَه عَلِم التفسير، بل يكون هذا العلم من جملة المصادر التى تفيد المفسر، وتعينه فى بيان القرآن ... ولاشك أن بعض هذه العلوم أسعد حظا من غيرها فى بيان القرآن ؛ كعلم مفردات اللغة الذى

(١) انظر: التفسير القرآنى للدكتور/ محمد رجب البيومى (٢٢/١).

(٢) انظر: مقدمة تفسير المنار (٢١/١) و"لمحات فى علوم القرآن " د/محمد الصباغ (ص١٩٤).

لايمكن أن تنفك منه آية، والمفسر بحاجة أكيدة إليه ؛ إذ لايمكن التفسير بدون معرفة دلالة الألفاظ [١]. وإذا كان العلماء قد اشترطوا توافر هذه العلوم فيمن يتصدى للتفسير فإن هذه الشروط استحسانية، ولايعنى هذا أنه يتوجب على المفسر الإحاطة التامة بسائر هذه العلوم المذكورة، وإنما يكفى معرفة معاقد أصولها، وأمهات مسائلها، حتى لايخرج طالب التفسير أو المفسر على أصل مؤصل، أو قاعدة مقررة أو أمر مجمع عليه [٢]، على أن يكون معلوماً عند من يفسر القرآن وغيره، أن العلوم والمعارف والأفكار والحوادث والتجارب التى تجدُّ فى الزمان، عوامل مهمة فى شرح القرآن، وكل حقبة من سلسلة هذه الأزمان الطويلة، تكشف عن بعض مخبوءات أسراره التى لم تكن معروفة من قبل، ومن ثم .. قال الزركشى: وكل من كان حظه من العلوم أوفر كان نصيبه من علم القرآن أكثر[٣].

فعلى المفسر الاستفادة من الكسب العلمى، والحقائق المعرفية فى ميادين الحياة الاجتماعية وغيرها - والتى أصبحت حقائق - أثناء النظر للآيات[٤].

(١) انظر: كتاب" أنواع التصنيف المتعلق بتفسير القرآن " (ص٣١) ومابعدها.

(٢) مدخل إلى علوم القرآن د/فاروق حمادة (ص٢٣٠)علوم القرآن بين البرهان والإتقان د/ حيدر (ص٣٠٣)

(٣) انظر: البرهان فى علوم القرآن (١٤٨/٢). و " مناهل العرفان " (٨٦/٢).

(٤) انظر: " كيف نتعامل مع القرآن " للشيخ محمد الغزالى (ص٢٥٥) ط: المكتب الإسلامى.

- **الآداب التى ينبغى أن يتحلى بها المفسر:**

لكى يستقيم المفسر فى تفسيره، ويوفقه ربه لقول الحق والنطق بالصدق والاهتداء إلى أسرار التنزيل، لابد له من آداب يتحلى بها، فتكون تزييناً وتجميلاً وروحاً للشروط التى اشترطها العلماء فى المفسر، ومن أهم هذه الآداب والشروط:

١- **صحة الاعتقاد وسلامة الفكر.**

والعلة فى هذا، أن فساد الاعتقاد والفكريؤدى بصاحبه إلى تحريف دلالة القرآن إلى مايعتقد وينتهج، وقد وقع ذلك من طوائف ممن تصدى للتفسير ولم يكونوا على الاستقامة، فقالوا على الله غير الحق، وحرفوا الكلم عن دلالته، ككلامهم فى تحريف معانى الصفات، والوعد والوعيد، وغيرها من آيات العقائد والإيمان.

٢- **سداد المقصد وإخلاص النية.**

وهذا شبيه فى أثره للذى قبله ومتمم له، والإخلاص والصدق قائد لصاحبه إلى الهدى. فاستقامة المقصد من أعظم أسباب التوفيق، وفهم القرآن توفيق ومنحة ؛ كما قال تعالى: (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ)، وقال على رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: " ... أو فهماً يؤتيه الله رجلاً فى القرآن "[1]. والعلم النافع المحقق لمعرفة الله عَزَّوَجَلَّ وخشيته لايكون إلا مع الإخلاص والاستعانة به، والقصد إلى العمل بذلك العلم

(١) رواه البخارى كتاب العلم باب: كتابة العلم.

٣- التجرد من الهوى، والتعرى عن التعصب المذهبى.

فمن الحجب الكثيفة المانعة من إدراك حقائق التنزيل والفهم السليم لكلام الله: اتباع الهوى، كان ذلك فى الشبهات أو الشهوات. وقد قال الله تعالى لنبيه داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ولا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾[ص: ٢٦]، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾[القصص: ٥٠]، ويقرر هذا الزركشى بصورة أعمق، فيقول: واعلم أنه لايحصل للناظر فهم معانى الوحى حقيقة، ولايظهر له أسرار العلم من غيب المعرفة، وفى قلبه بدعة، أو إصرار على ذنب، أو فى قلبه كبر أو هوى، أو حب الدنيا، أو يكون غير متحقق الإيمان، أو ضعيف التحقيق، أو معتمداً على قول مفسر ليس عنده إلا علم بظاهر، أو يكون راجعاً إلى معقوله، وهذه كلها حجب وموانع، وبعضها آكد من بعض[١].

فهذه الشروط والآداب تعتبر من أهم العوامل التى تعصم المفسر من الشطط فى التفسير، والزلل فى التأويل، وتحميه من القول على الله بغير علم.

(١) البرهان فى علوم القرآن (٢/١٨٠).

المبحث الأول

المنهج السديد فى التعامل مع التفسير المأثور

توطئة: وجدت موسوعات من الكتب المؤلفة فى التفسير، جمعت كل ماوقع لأصحابها من التفسير النقلى، وتوسعوا فى النقل وأكثروا منه، حتى شمل الصحيح والواهى، والمتين والسقيم، والغث والسمين، ودون تحديد المقبول والمردود منها، وتفريق بين الصحيح والعليل. مما يجعل المرء يتوجس خيفة أن يركن إليها أو ينقل منها، خشية أن يكون المنقول من قبيل المنكر والموضوع، وهو كثير فى التفسير[1]. **قال ابن القيم**: كثير من المفسرين يأتون بالعجائب التى تنفر عنها النفوس، ويأباها القرآن أشدَّ الإباء[2].

والمفسرون القدامى الذين فسروا القرآن بالرواية، قد رسموا معالم منهجهم حيال التفسير بالمأثور، سواء مايتعلق منه بأقوال النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو بأقوال الصحابة والتابعين -رضى الله عنهم أجمعين -، وبرز هذا المنهج بوضوح وجلاء، فالكل اعتمد فى تفسيره على ماأثر عن النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة والتابعين من أقوال، غير أن طريقتهم كانت تتمثل فى الاكتفاء بذكر الرواية دون النظر إلى الصحة أوالضعف، مما يشكل صعوبة على الدارس أثناء بحثه عن الرواية، أو الوقوف على درجتها (فكان على المفسر بالمأثور أن يدقق فى تعبيره، ويحترس فى روايته، ويحتاط كثيراً فى ذكر الأسانيد[3] ؛

(١) انظر: "التفسير والمفسرون " (١/١٤٩).

(٢) الصواعق المرسلة (٢/٦٩٤)ط: دار العاصمة.

(٣) انظر: مباحث فى علوم القرآن د/صبحى الصالح (ص٢٩١).

لأن كثيراً مما روى فى التفسير المأثور حجاب على القرآن وشاغل لتاليه عن مقاصده العالية المزكية للأنفس المنورة للعقول، فالمفضلون للتفسير المأثور لهم شاغل عن مقاصد القرآن بكثرة الروايات، التى لاقيمة لها سنداً ولاموضوعاً[1].

رسم معالم المنهج السديد فى التعامل مع التفسير المأثور

ويمكن أن نلخص المنهج السديد فى تعامل المفسر مع مرويات التفسير المأثور - حسبما أُراه - فى النقاط التالية:

١- وجوب التثبت من صحة الأخبار ونسبتها إلى قائلها:

فإذا صحت كانت مادة علمية ثمينة يحرص عليها وينتفع منها أعظم الانتفاع، ويرجع إليها فى فهم كتاب الله وتفسيره ؛ لأنه إذا كان فى بعض كتب التفسير التى ينقل منها الصحيح والضعف، مثل تفسير الثعلبى والواحدى والبغوى، بل وابن جرير وابن أبى حاتم، لم يكن مجرد رواية واحد من هؤلاء دليلاً على صحته باتفاق أهل العلم، فإنه إذا عُرف أن تلك المنقولات فيها صحيح وضعيف فلابد من بيان أن هذا المنقول من قسم الصحيح دون الضعيف[2]. يقول ابن تيمية: هذه الكتب التى يسميها كثير من الناس "كتب التفسير"، فيها كثير من التفسير منقولات عن السلف مكذوبة عليهم، وقول على الله ورسوله بالرأى المجرد، وفى كتب التفسير من النقل عن ابن عباس من الكذب شىء كثير، من رواية الكلبى عن أبى صالح عنه، فلا بد من

(١) انظر: تفسير المنار (١/١٠).

(٢) انظر: منهاج السنة (٧/٣٠٠).

تصحيح النقل لتقوم الحجة[1].

واعتذر ابن تيمية عن المفسرين الذين نقلوا فى كتبهم الأخبار الضعيفة والموضوعة بقوله: المفسر الذى ينقل أقوال الناس فى التفسير ليذكر ماذكره وإن كان كثيراً من ذلك لايعتقد صحته، بل يعتقد ضعفه؛ لأنه يقول: أنا نقلت ماذكر غيرى، فالعهدة على القائل لا على الناقل[2]. **وقال أيضاً**: المذكور عن سلف الأمة وأئمتها من المنقولات، ينبغى للإنسان أن يميز بين صحيحه وضعيفه، كما ينبغى مثل ذلك فى المعقولات، والنظريات، وكذلك فى الأذواق والمواجيد، والمكاشفات والمخاطبات، فإن كل صنف من هذه الأصناف الثلاثة، فيها حق وباطل، ولابد من التمييز فى هذا وهذا[3].

ومحصلة كلام ابن تيمية تمثل منهجاً سديداً فى التعامل مع المأثور من المنقول. وقد سبقه إلى تقرير ذلك الخطيب البغدادى، فيرى أنه ينبغى على المفسر أن يقصد تخير الطرق الواضحة، والأحاديث الصحيحة، والروايات المستقيمة فى التفسير، ولايذهب وقته فى الترهات من تتبع الأباطيل والموضوعات، وتَطَلُّب الغرائب والمنكرات[4].

ويقول القرطبى: ولو اقتصر الناس على ماثبت فى الصحاح والمسانيد وغيرهما من المصنفات التى تداولها العلماء، ورواها الأئمة الفقهاء، لكان

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٦/٢٣٤).

(٢) منهاج السنة لابن تيمية (٧/٣٨)بتلخيص يسير.

(٣) الفتاوى لابن تيمية (١١/٣١٦).

(٤) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع (٢/١٥٩) بتصرف وتلخيص يسير. ط: المعارف.

لهم فى ذلك غُنْيَة، وخرجوا عن تحذيره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قال: "اتقواالحديث عنى إلا ماعلمتم، فمن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار"[(١)]. فتخويف أمته من الكذب دليل على أنه كان يعلم أنه سيُكذب عليه. فحذار مما وضعه أعداء الدين، فى باب الترغيب والترهيب وغير ذلك[(٢)].

هذا .. والروايات المأثورة عن النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه وعلماء التابعين فى التفسير منها ماهو ضرورى ؛ لأن ماصح من المرفوع لايقدم عليه شىء، ويليه ماصح عن علماء الصحابة، مما يتعلق بالمعانى اللغوية أو عمل عصرهم، والصحيح من هذا وذاك قليل. وكان الواجب جمع الروايات المفيدة فى كتب مستقلة ؛ كبعض كتب الحديث وبيان قيمة أسانيدها، ثم يذكر فى التفسير مايصح منها بدون سند [(٣)].

٢- المنهج السديد فى التعامل مع الإسرائيليات:

ورد النهى عن سؤال أهل الكتاب بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لاتسألوا أهل الكتاب عن شىء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا .. الخ"[(٤)]، والمراد بالنهى عن سؤالهم النهى عن سؤال الاهتداء، وتلقى ما يروونه بالقبول لأجل العلم بالشرائع الماضية وأخبار الأنبياء ؛ لزيادة العلم، أو لتفصيل بعض ما أجمله

(١) رواه الترمذى التفسير(٢٩٥١) وقال: حديث حسن. النسائى الكبرى(٨٠٣١).

(٢) انظر: مقدمة تفسير القرطبى (١/١١٥).

(٣) انظر: تفسير المنار (١/٨-٩)بتلخيص.

(٤) رواه البزار وعند أحمد بعضه وفيه جابر الجعفى وهو ضعيف. المجمع(١/١٧٤) وقال الحافظ فى الفتح(١٣/٣٤٥): استعمله البخارى فى الترجمة لورود مايشهد بصحته من الحديث الصحيح.

القرآن، وسببه ما هو ظاهر من السياق، وهو أنهم لنسيانهم بعض ما أنزل إليهم وتحريفهم لبعضه بطلت الثقة بروايتهم، فالمصدق لها عرضة لتصديق الباطل، والمكذب لها عرضة لتكذيب الحق ؛ إذ لا يتيسر لنا أن نميز فيما عندهم بين المحفوظ السليم من التحريف وغيره، فالاحتياط ألا نصدقهم ولا نكذبهم إلا إذا رووا شيئاً يصدقه القرآن أو يكذبه[1]. **فالمنهج السديد** يلزم المفسر الإضراب عن رواية الإسرائيليات، إلا مالابد منه ولاغنى عنه للتبيين، وهذا ماشرطه ابن عطية والقرطبى فى منهج تفسيرهم للقرآن. فلا يذكر فى تفسيره شيئاً من الإسرائيليات إلا بقدر مايقتضيه بيان الإجمال، فالضرورى يتقدر بقدر الحاجة ؛ ليحصل التصديق يشهادة القرآن. وأكد هذا المعنى السيوطى وقرره بقوله: ولايذكر الأقاصيص التى لايدرى صحتها خصوصاً الإسرائيليات، وليقتصر منها على ماتدعو إليه الضرورة، إذا كان فى الآية إشارة إليه، متحرياً أصح ماورد[2].

كما يفرض المنهج السديد على المفسر أيضاَ أن يرُدَّ كل الإسرائيليات التى تعارض القرآن، أو صحيح السنة، أو تعارض أصلاً إسلامياً مقرراً، كعصمة الأنبياء، وترفُّعِهم عن عمل السفهاء، وبُعدهم عن الوقوع فى الفواحش والمحرمات، والأذى والعدوان، وكل مايحكم العقل باستحالته وبطلانه مما يرويه الناس من الإسرائيليات، ينبغى رده ولايجوز قبوله، وقد عاب أبو حيان على المفسرين الذين ذكروا ما لا يصح من ... حكايات

(١) تفسير المنار (٦/٣٤١).

(٢) التحبير فى علم التفسير (ص٣٢٥) وانظر مقدمة تفسيرابن عطية (١/٥) والقرطبى (١/٣).

لاتناسب، وتواريخ إسرائيلية، ولاينبغى ذكر هذا فى علم التفسير[1].

٣- المنهج السديد فى باب أسباب النزول:

معرفة أسباب النزول لازمة لمن رام علم القرآن، والجهل بها موقع فى الشبه والإشكالات، والغفلة عنها تؤدى إلى الخروج عن المقصود من الآيات، كما قال الشاطبى[2].

فعلم أسباب النزول من العلوم المساعدة على إتقان الفهم والتدبر للقرآن، لاسيما أن هناك آيات فى القرآن منوطة تفسيرها بمعرفة السبب والوقوف عليه. وإنما يحتاج إلى معرفة سبب النزول فى آيات الأحكام ؛ لأن معرفة الوقائع والحوادث التى نزل فيها الحكم تعين على فهمه وفقه حكمته وسره. ومثلها مافيه إشارة إلى بعض الوقائع كغزوة بدر والنصر فيها، ومصيبة المؤمنين فى أحد، وأما الآيات المقررة للتوحيد- وهو المقصود الأول من الدين- فلا حاجة إلى التماس أسباب لنزولها، بل هى لاتتوقف على انتظار السؤال[3].

والملاحظ أن كتب التفسير - لاسيما المأثور منها - ضمت فى تضاعيفها كثيراً من الروايات الواهية والضعيفة فى أسباب النزول، والناظر فيها يرى أنها تعج بالأخطاء التاريخية، والمبالغات العجيبة، والغرائب النادرة، التى تتنافى مع روح النص، وسياق الآية وسباقها، وقد حملت حملاً على

(١) مقدمة البحر المحيط (٥/١).

(٢) انظر: الموافقات (٣١١/٣)بتلخيص.

(٣) انظر: تفسير المنار (٤٦/٢-١٨٤).

أسباب النزول، وأنطقت القرآن بما لم ينطق به، مما أدى إلى توهم كثير من الناس أن لابد لكل آية من سبب نزول حتى فى وقائع الأمم الماضية التى دفنت معها أسبابها ونتائجها، وطويت فى رموسها مقدماتها وعواقبها، وتوهم من يقرأها أنها بيان للقرآن، وتوضيح لأهدافه، مع أنها صارفة للذهن عما اقتضته حكمة التنزيل إيراده(١). وأشار إلى هذا العلامة الدهلوى مقرراً: أنه لادخل لأكثر روى من أسباب النزول فى فهم معانى الآيات الكريمة اللهم إلا شيىء قليل من القصص والروايات، واعتبار معرفتها شرطاً من شروط التفسير خطأ بيِّن، والاعتقاد بأن تدبر كتاب الله تعالى يتوقف على الإحاطة بها واستحضارها تفويت لحظ النفس من كتاب الله وحرمان من إدراك روحه وجوهره(٢). وليس من الضرورى ذكر هذه القصص والحوادث فى أسباب النزول ؛لأن فهم الآية لايتوقف عليها(٣).

فعلى المفسر لتحقيق المنهج السديد فى هذا المقام أن يتنبه إلى أمرين مهمين:

أولاً: التأكد من صحة الحديث الذى يُنقل فى سبب نزول الآية ؛ لأن كثيراً من الأحاديث المروية فى هذا الموضوع من الأحاديث الضعيفة والتالفة.

ثانياً: ألا يحصر المفسر معنى الآية فى الحادثة التى كانت السبب فى

(١) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١/٤٦).

(٢) انظر: الفوز الكبير فى أصول التفسير (ص١٠٤)بتلخيص.

(٣) انظر: المرجع السابق (ص١٧٥-١٧٦).

نزول الآية، فإن قولهم: إن هذه الآية نزلت فى فلان وفلان، فبهذا يمثل بمن نزلت فيه أولاً وكان سبب نزولها، لايريدون به أنها آية مختصة به، كآية اللعان، وآية القذف، وآية المحاربة، ونحو ذلك. لايقول مسلم إنها مختصة بمن كان نزولها بسببه. وأن ذم الكفار لم يدخل فيه إلا كفار قريش، ونحو ذلك، مما لايقوله مسلم ولاعاقل(١).

ثالثاً: يضاف إلى هذا - إن كان لزاماً على المفسر التماس سبب نزول - أن يكون سبب النزول متعلقاً بالأحياء على عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سواء كانوا من المؤمنين أم المشركين، أم من أهل الكتاب. فمن الإفراط فى علم سبب النزول أن نتوسع فيه، ونجعل منه ماهو من قبيل الأخبار عن أحوال الأمم الماضية، والوقائع الغابرة.

ولا يعزبن عن بالك أن التكلم فى أسباب النزول بدون السماع والمشاهدة لايجوز ؛ لأن سبب النزول من الأمور التى لا دليل عليها إلا من جهة الشرع، فإذا لم يجئ دليل من قبل الشرع على ذلك لا يجوز التكلم فيه، فيكون التكلم فيه كالتكلم فى الغيبيات التى ليس لها دليل أصلاً، ولذا قال البغوى: الكلام فى أسباب نزول الآية وشأنها وقصتها، لا يجوز إلا بالسماع بعد ثبوته من طريق النقل الصحيح(٢).

٤- **المنهج السديد فى باب الناسخ والمنسوخ**: معرفة الناسخ والمنسوخ

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٩١/١٦) بتلخيص.

(٢) انظر: مقدمة تفسير البغوى (٤٦/١) والتيسير فى قواعد التفسير للكافيجى (ص٢٠٦) ط: دار القلم.

من أهم العلوم التى ينبغى للمفسر الإحاطة بها، وإغفال المفسر معرفته بهذا العلم يؤدى به إلى الوقوع حتماً فى الخطأ. ومن ثمَّ .. اعتبرابن الجوزى من صور الإخلال فى كتب التفسير خلوها من الناسخ والمنسوخ، وغيره من الفنون المطلوبة[1]. وقد رأى علىّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قاصاً يقص فقال له على: تعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال: لا. فقال: "هلكت وأهلكت"[2].

وأشار القرطبى فى مقدمة تفسيره إلى عدد من العلوم التى يجب على طالب التفسير أن يتقنها، وأوضح أهمية تلك العلوم بالنسبة إليه، فذكر من جملة هذه العلوم " علوم القرآن " كالمكى والمدنى، والناسخ والمنسوخ ؛ ليفرق بذلك بين ماخاطب الله به عباده فى أول الإسلام، ومانديهم إليه فى آخر الإسلام. ومافترض الله فى أول الإسلام، ومازاد عليه من الفرائض فى آخره. فالمدنى هو الناسخ فى أكثر القرآن، ولايمكن أن ينسخ المكى المدنى ؛ لأن المنسوخ هو المتقدم فى النزول قبل الناسخ له[3].

بيد أنه قد بالغ كثير من المفسرين -لاسيما المصنفين فى ناسخ القرآن ومنسوخه - فسلكوا كثيراً من العموم المخصص فى عداد المنسوخ!. ومن المبالغات العجيبة إدراجهم فى عداد المنسوخ ما أبطله القرآن من عادات الجاهلية، ومارفعه من شرائع من قبلنا كإباحة بعض المطعومات التى كانت محرمة عليهم، مما جعل ابن الجوزى يَنْعى على السدى الكبير إسماعيل بن

(١) انظر: مقدمة تفسير زاد المسير (٦/١).

(٢) رواه أبو نعيم فى تاريخ أصبهان (٨٩/١).

(٣) انظر: مقدمة تفسير القرطبى (٥٤/١-٥٥)بتلخيص.

عبد الرحمن (ت: ١٢٨) وهبة الله بن سلامة (ت: ٤١٠) كتابيهما فى الناسخ والمنسوخ فيقول: ومن نظر فى كتاب الناسخ والمنسوخ للسدى رأى من التخليط والعجائب، ومن قرأ فى كتاب هبة الله المفسر رأى العظائم[١]. وفيما أورده المكثرون ألواناً ليست من النسخ ولامن التخصيص فى شىء ولا لها بهما علاقة بوجه من الوجوه. ومن ذلك أن بعض المفسرين ظنوا أن قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾[التين: ٨] مما نسخ بآية السيف !. ومازال العلماء المحققون بالآيات التى قيل إنها منسوخة يبحثونها من وجوهها المختلفة حتى حصروا مايصلح منها لدعوى النسخ فى عدد قليل، وتعقب آخرون هذا القليل نفسه فآثروا فى طائفة منه القول بالإحكام على القول بالنسخ، فالسيوطى مثلاً حصر دعوى النسخ فى إحدى وعشرين آية على خلاف فى بعضها، ثم استثنى منها آيتى الاستئذان والقسمة، فذكر أن الأصح فيهما أنهما محكمتان[٢]. والأصل فى آيات القرآن كلها الإحكام لا النسخ، إلا أن يقوم دليل صريح على النسخ فلا مفر من الأخذ به. وإنما يرجع فى النسخ إلى نقل صريح عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو عن صحابى، وقد يحكم به عند التعارض المقطوع به مع علم التاريخ ليعرف المتقدم والمتأخر. ولايعتمد فى النسخ قول عوام المفسرين بل ولااجتهاد المجتهدين من غير نقل صحيح ولامعارضة بينة ؛ لأن النسخ يتضمن رفع حكم وإثبات حكم تقرر فى عهده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمعتمد فيه النقل

(١) انظر: نواسخ القرآن لابن الجوزى (ص٧٥).

(٢) انظر: الإتقان (٧١٢/٢)ومباحث فى علوم القرآن د/صبحى الصالح (ص٢٧٣).

والتاريخ دون الرأى والاجتهاد[1]. فلايجوز الكلام فيه إلا سماعاً، ومن أراد معرفة ذلك رجع فيه إلى أخبار الصحابة الذين شاهدوا تنزيل القرآن، وأدوا إلينا من السنن مايكون بياناً لكتاب الله تعالى[2]. كما أن **تحقيق المنهج السديد** يوجب على المفسر أن يكون مستوعباً لمفهوم النسخ عند إطلاقه منسوباً إلى بعض علماء السلف أوالخلف ؛ لأن إطلاق النسخ يختلف بين السلف والمتأخرين. فالمتأخرون من علماء الفقه وأصوله يعرفون النسخ بأنه: رفع حكم شرعى بدليل شرعى متراخٍ عنه. وأغلب مادة كتب "الناسخ والمنسوخ" تتعلق بالنسخ على اصطلاح المتأخرين. أما علماء السلف من الصحابة والتابعين وأتباعهم، فالنسخ عندهم يشمل النسخ الذى استقر عليه المتأخرون، والعام والخاص، والمجمل والمبين، والمطلق والمقيد. وهذا يعنى أن مصطلح النسخ عندهم يشمل رفع أى حكم، أو معنى فى الآية، وهو بهذا يشمل تخصيص العام، وتقييد المطلق، وبيان المجمل، والاستثناء، وغيرها مما يدخله إزالة بعض معناه. وعلى هذا المفهوم من النسخ يحمل كلام على بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى الناسخ والمنسوخ، والذى أوردناه سابقاً. وقد نبه على مفهوم النسخ عند السلف جمع من العلماء ؛ كالشاطبى[3]. وإذا تقرر هذا، فإنه لايصح الاعتراض على مايرد عن السلف من النسخ حتى يتبين لك الأمر. ومثال ذلك: ماروى عن ابن عباس أنه حكم على قوله تعالى: (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ)[الشعراء: ٢٢٤] بأنه منسوخ

(١) انظر: مباحث فى علوم القرآن د/صبحى الصالح (ص٢٧٢).

(٢) انظر: الإتقان (٢/١٢٠٧-١٢١٦) بتصرف وتلخيص.

(٣) الموفقات (٣/٧٣) وينظر: أعلام الموقعين (١/٣٥) والفوز الكبير للدهلوى (ص٥٣).

بقوله تعالى: (إِلا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)[الشعراء: ٢٢٧]، والآية المنسوخة خبر، وقد تقرر فى قواعد النسخ أن الأخبار لاتنسخ، ولكن إذا حملت النسخ على مطلق الرفع، وأنه هنا رفع بعض العموم الوارد على لفظ "الشعراء". وبهذا يكون الاستثناء الوارد بعد هذا العموم قد خصص من الشعراء من آمن بالله، صح لك ماورد من الحكم بالنسخ، وأنه لايراد به النسخ على الاصطلاح المتأخر الذى استقر عليه علماء أصول الفقه وغيرهم. وأسند النحاس عن وهب بن منبه (ت: ١١٤هـ) أن قوله تعالى (وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) [الشورى: ٥] منسوخ بقوله تعالى: (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا) [غافر: ٧]، وقد اعترض على هذا جماعة منهم ابن الجوزى قال: وهذا قبيح ؛ لأن الآيتين خبر، والخبر لاينسخ(١).

وهذا الاعتراض يصح لو كان مقصود القائل النسخ الاصطلاحى المتأخر، ولكن لو حُمِل على مصطلح السلف، وجعل هذا من بيان المجمل، لكان المذهبَ دون أن يعترض على العلماء، ما كان لقولهم وجهاً مقبولاً. وعلى هذا قس كثيراً مما ورد من لفظ النسخ عن السلف، تسلم من الاشتباه فى تفسيرهم، أو الاعتراض عليهم بما لهم فيه مصطلح يغاير مااستقى عليه المتأخرون (٢).

(١) انظر: كتاب " الناسخ والمنسوخ " للنحاس (٦١٢/٢) ونواسخ القرآن لابن الجوزى (ص٤٤٧).

(٢) انظر: كتاب " أنواع التصنيف المتعلق بتفسير القرآن " د/ مساعد الطيار (ص١٤٦).

٥- المنهج السديد فى التعامل مع القراءات القرآنية:

لاريب أن الرجوع إلى القراءات المتواترة والاستفادة منها فى إيضاح المعنى يعدُّ من تفسير القرآن بالقرآن ؛ لذا رأى العلماء أن على المفسر الاعتناء فى تفسيره بالقراءات المتواترة، وبيان اختلافها ؛ لأن فى اختلافها توفيراً لمعانى الآية غالباً[١]. ولا نعنى بذلك اختلاف القراءات فى وجوه النطق بالحروف والحركات التى لايترتب عليها اختلاف فى المعنى، وإنما نقصد اختلاف القراءات التى لها علاقة بالتفسير، وتشمل اختلاف القراءة فى حروف الكلمات واختلاف الحركات التى يختلف معها المعنى[٢] ؛ لأن ثبوت أحد اللفظين فى قراءة قد بيَّن المراد عن نظيره فى القراءة الأخرى، أو يثير معنىً غيره ؛ ولأن اختلاف القراءات فى ألفاظ القرآن يكثر المعانى فى الآية الواحدة[٣]. ومثال ذلك قوله تعالى: (ولا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ)[البقرة: ٢٢٢] فقد قُرىء بتخفيف الطاء وضم الهاء فى (يَطْهُرْنَ)، وقرىء بتشديد الطاء والهاء وفتحهما[٤]. فإذا لم يعرف المفسر القراءة الأخرى فى الآية فقد يقصر المعنى على إحدى القراءتين، وذلك خلاف الأولى، بل قد ينكر المعنى الوارد فى قراءة التخفيف أو التشديد فيقع فى الخطأ، فى حين أن قراءة التخفيف جعلت انقطاع دم الحيض غاية النهى عن قربان الزوجة. وزادت قراءة التشديد فى هذه الغاية فاشترطت الاغتسال بالماء بعد انقطاع الدم،

(١) انظر: تفسير التحرير والتنوير (١/٥٥)

(٢) انظر: أصول التفسير وقواعده، لخالد العك (ص٤٢٨).

(٣) انظر: تفسيرالتحرير والتنوير (١/٥٢).

(٤) انظر: التيسير للدانى(ص٨٠-٩٦).

وقبل قربان الزوج لها. وقوله تعالى: ﴿**أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ**﴾[المائدة: ٦]، فقد قرىء بالألف على معنى جعل الفعل من اثنين، فيكون المراد بالملامسة هنا الجماع ؛ لأنه لايكون إلا من اثنين. وقرىء بغير ألف (لمستم) والمعنى على هذه القراءة مس يد الرجل أو جسده ليد امرأة أو جسدها. وحين يقتصر المفسر على إحدى القرائتين فلا شك أنه سيقصر عن درجة البيان والايضاح لمعانى القرآن ؛ لأن القراءة الأخرى متواترة وقد حملت معنى زائداً عن القراءة الأولى[1].

فالمنهج السديد يطالب المفسر قبل الدخول فى تفسير كتاب الله تعالى، بالوقوف على القراءات المتواترة ؛ ليتمكن من معرفة معانى الآيات ومايترتب عليها من أحكام ؛ وحتى لايقع فى الخطأ فيرد شيئاً من المعانى الصحيحة الواردة فى قراءات متواترة يجهلها، فضلاً عن أن يرد القراءة ذاتها وينكر قراءنيتها.

لكن ينبغى التنبيه إلى أن علم توجيه القراءات يشتمل على موضوعات، **منها**: توجيه الإعراب، وتوجيه التصريف، وتوجيه الأداء، وتوجيه اختلاف معانى الألفاظ. والذى يخص علم التفسير منها: توجيه مايتعلق بالمعنى، فإذا اختلف المعنى بسبب القراءة فإنه من علم التفسير. أما إذا لم يكن الاختلاف متعلقاً بالمعنى، فإنه يكون خارجاً عن علم التفسير. وهذا يعنى أن المفسر لايستفيد من كتب هذا العلم إلا مما يتأثر به المعنى. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٧]، فقد ورد فى لفظ تهجرون

(١) انظر: مناهل العرفان (١/٤٧٤).

قراءتان: الأولى (تَهْجُرُونَ) بفتح التاء وضم الجيم، والمعنى: تتركون الآيات، ولاتنقادون لها، ولاتؤمنون بها. والثانية: (تُهْجِرون) بضم التاء وكسر الجيم، والمعنى: تقولون الهجر من الكلام، وهو الهذيان، والقبيح من القول، ومالاخير فيه[1].

وهناك جملة من الضوابط التى ينبغى أن يقف عليها المفسر عند تعامله مع القراءات القرآنية بما يحفظ لها منزلتها ومكانتها من حيث كونها قرآناً مقطوعاً بصحته إذا كانت متواترة، ومن حيث كونها مصدراً مهماً فى التفسير إن قصرت عن درجة التواتر. وتتمثل هذه الضوابط فيما يلى:

١- عدم رد القراءات المتواترة أو الترجيح بينها.

٢- اعتبار القراءتين المتواترتين بمثابة الآيتين إذا ظهر تعارضهما.

٣- تفسير الآية بالقراءة المتواترة دون الشاذة إذا تعارض معناهما.

٤- مراعاة رسم المصحف عند التفسير.

٥- عدم الحكم باختلاف مفسرين فى معنى آية إذا فسر كل منهما على قراءة مختلفة، وكثير من التجاوز والخطأ الذى وقع فيه بعض من تصدوا للتفسير كان مرده تجاوز هذه الضوابط وعدم الاهتمام بها[2].

وهذه القراءات التفسيرية المنقولة عن أفراد الصحابة فيها مايعين كثيراً

(١) انظر: كتاب " أنواع التصنيف المتعلق بتفسير القرآن" د/مساعد الطيار (ص١٧٧).

(٢) انظر كتاب" ضوابط وآثار استعانة المفسر بالقراءات " د/عادل الشِّدى(ص٤٣) ومابعدها بتلخيص.

فى تفسير القرآن، والمقصود ماثبتت به الرواية عنهم، كالمنقول من قراءات ابن مسعود وأبى بن كعب وغيرهم، وقد صح عن مجاهد بن جبر المكى - تلميذ ابن عباس - أنه قال: لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود، لم أحتج إلى أن أسأل ابن عباس عن كثير من القرآن مما سألت[1] ؛ لأن فيها تفسيراً وبياناً لكثير من ألفاظ القرآن، فمايؤثر عن الصحابة والتابعين أنهم قرءوا بكذا وكذا إنما ذلك على جهة البيان والتفسير، لاأن ذلك قرآن يُتلى، وكذلك مانسخ لفظه وحكمه، أو لفظه دون حكمه ليس بقرآن[2].

وعامة من جرى على اقتفاء الأثر فى التفسير قد اعتنى بهذا الجانب من أصوله.

٦- المنهج السديد فى التعامل مع أحاديث فضائل السور ونحوها.

تزاحمت فى كتب التفسير روايات عديدة وأخبار كثيرة فى فضائل سور القرآن وآياته، منها ماصح - وهو قليل - ومنها مالم يصح وقد ينحط إلى درجة الوضع !.

وقد شان بعض المفسرين تفاسيرهم حين رووا ونقلوا هذه الموضوعات -لاسيما الحديث المروى فى فضائل السور -كابن مردويه والثعلبى والواحدى، من أصحاب التفسير النقلى، والزمخشرى والبيضاوى من أهل التفسير بالرأى، وهو موضوع باتفاق [3].

---

(١) رواه الترمذى بعد رقم (٢٩٥٢)

(٢) انظر: مقدمة تفسير القرطبى (١/١٢١)

(٣) انظر: الموضوعات لابن الجوزى (١/٢٤٠) منهاج السنة لابن تيمية (٤/٨٣)تخريج

فالمنهج السديد يحتم على المفسر الاقتصار فى التفسير على ماصح وثبت فى فضائل سور القرآن، وعدم الإلتفات إلى ماوضعه الواضعون، واختلقه المختلقون من الأحاديث الكاذبة، والأخبار الباطلة فى فضل سور القرآن، وغير ذلك من فضائل الأعمال، والأماكن والبلدان، وقد ارتكب هذا الإثم واختلق هذا الإفك جماعة من الوضاعين اختلفت أغراضهم ومقاصدهم فى ارتكابه[1].

=

أحاديث الكشاف لابن حجر (٨٢٢/٤) اللآلى المصنوعة للسيوطى (١١٨/١).

(١) انظر: مقدمة تفسير القرطبى (١١٣/١).

المبحث الثانى

المنهج السديد فى التفسير بالرأى المحمود

• المقصود بالتفسير بالرأى، أى بالاجنهاد، وهو: إعمال الفكر والنظر فى الوصول إلى المراد [1]. وهو نوعان: تفسير بالرأى المحمود: وهو مايعتمد فيه المفسر فى بيان المعنى على فهمه الخاص، القائم على الدليل، والمستند إلى البرهان الصحيح. **الثانى**: التفسير بالرأى المذموم: وهو مايعتمد فيه المفسر فى بيان المعنى على فهمه الخاص، واستنباطه بالرأى المجرد، الذى لا شاهد له يصدقه، ولادليل صحيح يعتمد عليه. وتفسير القرآن بمجرد الرأى حرام[2].

المنهج السديد فى التفسير بالرأى المحمود

وعند محاولة تفسير القرآن بالرأى المحمود يجب مراعاة مجموعة من الأمور المهمة التى تسهم فى تحقيق المنهج المنشود، والهدف الأسمى من التفسير، يمكن تحديدها فيما يلى:

• **أولاً: اختيار الأسلوب الأمثل لفهم المخاطبين:**

فكتب التفسير إنما تؤلف فى الأصل - كسائر مايكتب فى العلوم الإسلامية - ؛ لنصح الأمة وربطها بدينها ؛ وذلك يوجب أن يخاطب كل جيل

(١) انظر: " مراقى الإيمان فى علوم القرآن " د/ على صر (٢٢٥).

(٢) انظر: مقدمة تفسير القرطبى(١/٦٦) وتحفة الأحوذى (٩/٢٧٧-٢٧٨)

بلغته [1].

ولما كانت الأساليب التى كتبت بها كتب التفسير وضعت فى عهود سحيقة بأساليب تناسب أهل العصور التى ألفت فيها ويسهل عليهم فهمها. ولما كان لكل عصر طابع خاص يمتاز به عن غيره فى آداب أهله وأخلاقهم وعاداتهم وطرائق تفكيرهم - وجب على المتصدين للتفسير فى هذا العصر مجاراة أهله فى كل ماتقدم، فكان لزاماً علينا أن نتلمس لوناً من التفسير لكتاب الله تعالى بأسلوب عصرنا موافقاً لأمزجة أهله، فأساس التخاطب أن لكل مقام مقالاً، وأن الناس يخاطبون على قدر عقولهم. وكتب التفسير السابقة مُفْعمة بكثير من المصطلحات التى لايعلمها إلا من أتقن هذه الفنون، فوجب تفسير القرآن بأسلوب سهل المأخذ قليل الكُلْفَة فى الفهم، حتى يستطيع القارىء أن يُلَّم بأسرار كتاب الله تعالى دون كدّ ولانصب. ومن أجمع الآيات التى حددت هذا المنهج القويم، قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾[إبراهيم: ٤]، والمقصود باللسان: اللغة ومابه التخاطب، وهذا من لطف الله بعباده، أنه أرسل كل رسول بلغة قومه ليبين لهم وليفهموا عنه، وإيماء إلى هذا المعنى جاء التعليل فى الآية، فالتفسير لابد أن يكتب بأسلوب يناسب أهل العصر، وبلغة مفهومة ومعروفة للمخاطبين، وهذا ماحضَّ عليه الشرع، مخاطبة الناس بما يفهمون لا بما يُستغلق عليهم فهمه. وكان منهم من كتب تفسيره بأسلوب غامض، ومن كتب بأسلوب واضح، وهذا ماحدى بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية إلى تأليف تفسير بأسلوب

(١) مقدمات أساسية فى علوم القرآن د/ عبد الله الجديع(ص٣٥٤)ط: مكتب البحوث الإسلامية، بريطانيا

عصرى سهل مبسط، واضح العبارة، وجيز لايخل ولايمل، بعيداً عن الخلافات المذهبية، والمصطلاحات الفنية، والحشو والتعقيدات اللفظية.

- **ثانياً: إلتزام الموضوعية فى التفسير:**

فلا يقبل المفسرمايسمعه إلا بدليل، ولايردد ماشاع على الألسنة دون مناقشة ونظر، ولايعتبر مانشأ عليه ولُقِّنَه فى صِغَره حقيقة لاتقبل المراجعة، بل عليه أن يعرض مايسمعه للبحث، وأن يناقش ماشاع على الألسنة بعقل يقظ وفكر مستنير، وأن يزن مالقنه بميزان الشرع(١).

- **ثالثاً: أن يكون الاعتماد فى التفسير على النقل الصحيح:**

وذلك فى نقل اللغة، وفى كل مايعتمد على الإسناد من الحديث فى القراءات، والتفسير، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والآثار عن الصحابة ومن بعدهم، وفى الكلام للعزو للعلماء، خاصة علماء السلف، فإن الحكايات الواهية ومالاأصل له كثير فى ذلك، وإلى هذا يشير الإمام أحمد فى عبارة جامعة قال: " ثلاث كتب لاأصل لها: الملاحم، والمغازى، والتفسير "(٢). يشير إلى أن أغلب مايذكر فيها، فهو إما ضعيف، أو موضوع

(١) انظر: بحوث فى أصول التفسير د/محمد لطفى الصباغ (ص٣٠٥).

(٢) أخلاق الراوى للخطيب(١٤٩٣) وقال ابن حجر فى مقدمة اللسان (١٠٦/١) " ينبغى أن يضاف إليها الفضائل، فهذه أودية الأحاديث الضعيفة والموضوعة، إذ كانت العمدة فى المغازى على مثل الواقدى، وفى التفسير على مثل مقاتل والكلبى، وفى الملاحم على الإسرائيليات، وأما الفضائل فلا يحصى، كم وضعت الرافضة على أهل البيت، وعارضهم جهلة أهل السنة بفضائل معاوية بدأً وبفضائل الشيخين

لاأصل له. وفى هذا المقام يقول الإمام عبد الرحمن بن مهدى: "لايجوز أن يكون الرجل إماماً حتى يعلم ما يصح مما لا يصح، وحتى لايحتج بكل شىء، وحتى يعلم مخارج العلم"[1]. ونعى العلامة الشوكانى على المفسرين الذين قصر باعهم فى تمييز الصحيح من السقيم من الأخبار، ونص كلامه: فكم فى بطون دفاترالتفاسير من أكاذيب وبلايا، وأقاصيص كلها حديث خرافة، ومأأحق من لاتمييز عنده لفن الرواية ولامعرفة به، أن يدع التعرض لتفسير كتاب الله)اهـ[2]

- **رابعاً: عزو الأقوال إلى قائليها:**

من أهم العوامل التى تساعد فى تحقيق منهج سديد فى التفسير بالرأى، أن يراعى المفسر فى منهجه التفسيرى عزو الأقوال إلى قائليها، وهذا مانص عليه القرطبى بقوله: وشرطى فى هذا الكتاب إضافة الأقوال إلى قائليها، والأحاديث إلى مصنفيها، فإنه يقال: من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله. وكثيراً مايجىء الحديث فى كتب التفسير مبهماً، لايعرف من أخرجه إلا من اطلع على كتب الحديث، فيبقى من لاخبرة له حائراً، لايعرف الصحيح من السقيم. وقال الخازن فى مقدمة تفسيره: فما أوردت فيه من الأحاديث النبوية والأخبار المصطفوية على تفسير آية أو بيان حكم، عزوته إلى مخرجه، وبينت اسم ناقله.

(١) رواه أبو نعيم فى الحلية رقم (١٢٨٣٩) والبيهقى فى المدخل رقم (١٨٨)..

(٢) فتح القدير(٢/٣٦).

- **خامساً: العناية بإبراز هداية القرآن ومقاصد الآيات:**

هناك مناهج تعاملت مع القرآن ؛ كمناهج الفقهاء والأصوليين والمفسرين بمدارسهم ومناهجهم المتعددة، وعلماء الكلام والمتصوفة، وعلماء اللغة الذين تعاملوا مع القرآن كمعجزة بلاغية .. هذه المناهج كلها التى جاءت ثمرة لواقع معين ومعالجات مرهونة بزمانها، لم تحقق الفقه المطلوب لآيات الله وسننه فى الأنفس والآفاق، ولم تغن العقل المسلم اليوم بالرؤية الشاملة من خلال الواقع والظروف التى نعيشها، والتوقف والجمود الذى لحق بهذا العقل وغيبته عن ساحة الشهود الحضارى .. ونحن الآن بحاجة إلى منهج للتحقق بالرؤية الشاملة، الموضوعية وليس الموضعية[1].

- وللشيخ محمد صادق عرجون منهج خاص فى تفسير كتاب الله تعالى دعا إليه ملخصاً مكرراً فى كتابه المبسوط (**القرآن الكريم هدايته وإعجازه فى أقوال المفسرين**) وفى كتابه الموجز (**نحو منهج لتفسير القرآن**)، وتدور فكرتهما بدءاً على ضرورة الاهتمام بكتاب الله باعتباره مصدراً للهداية الإنسانية، ومنقذاً للبشرية التائهة فى أودية البغى والفساد ! قبل أن يكون مجالاً لمناقشات علمية تتعلق بالنحو والصرف ومباحث علم الكلام وضروب اللجاج بين الطوائف المتنازعة ؛ إذ تحاول كل طائفة أن تصطاد من آيات الكتاب ماتحسبه ناصراً لها فى ميدان الجدل

(١) انظر: كتاب " كيف نتعامل مع القرآن " للشيخ / محمد الغزالى (ص٥٩) ط: المكتب الإسلامى.

السياسى أو العقدى، حتى اختفى الوجه المشرق للقرآن فى ضباب كثيف يصد القارىء عن صراط الله المستقيم. وهذه الدعوة النبيلة قد ارتفعت فى هذا العصر على لسان الأستاذ محمد عبده وقد طبقها تطبيقاً جيداً فيما أثر عنه من تفسير لكتاب الله حواه تفسير المنار معزواً إليه[1]. وفصَّل ابن عاشور حديثه فى بيان المقاصد الأصلية لنزول القرآن تحت عنوان: "المقدمة الرابعة: فيما يحق أن يكون غرض المفسر) وأجملها فى قوله: إن القرآن أنزله الله تعالى كتاباً لصلاح أمر الناس كافة ؛ رحمة لهم لتبليغهم مراد الله تعالى منهم، قال تعالى: (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)[النحل: ٨٩]، فكان المقصد الأعلى منه: صلاح الأحوال الفردية والجماعية والعمرانية ... فمراد الله تعالى من كتابه هو: بيان تصاريف مايرجع إلى حفظ مقاصد الدين.[2]. وبعد أن ذكر مقاصد القرآن مفصلة، حث المفسر على أن يعرفها ويخدمها عند التفسير، فقال: فلا جرم كان رائد المفسر فى ذلك أن يعرف على الإجمال مقاصد القرآن مما جاء لأجله[3]. فينبغى أن يُراعى فى التفسير المنشود والمنهج المأمول موضوع الهداية الربانية، والمقاصد الإلهية من نزول كتابه الكريم ، وهذا أحق مايجب أن يوليه المفسر اهتمامه وعنايته عند تصديه لتفسير القرآن. (وعدم الخروج بالتفكير أو

(١) مقدمة كتاب الفارق عمر للشيخ / محمد الصادق عرجون، تقديم د/ البيومى ص ٢٤ط: مجلة الأزهر

(٢) التحرير والتنوير المقدمة (٣٢/١) بتلخيص.

(٣) التحرير والتنوير المقدمة (٣٦/١) بتلخيص.

بالرأى عن المقاصد العامة التى حددت فى القرآن على أنها مسلَّمات[1].

- **سادساً: عدم الإغراق فى بحوث لغوية أو كلامية أو فقهية:**

فالاستطراد فى هذه البحوث تؤدى إلى حجب القرآن عن روح الإنسان المسلم الذى يريد أن يتدبر القرآن ويفهم معانيه، ويدرك مقاصده وهداياته. وتنبه إلى هذا بعض المفسرين العصريين وتجنبه فى تفسيره كما أشار فى المقدمة بقوله: كل ماحاولته ألا أغرق نفسى فى بحوث لغوية أو كلامية أو فقهية، تحجب القرآن عن روحى، وتحجب روحى عن القرآن[2]. وقرر السيوطى عندما شرع فى تفسير "الجلالين" ترك التطويل بذكر أقوال غير مرضية وأعاريب محلها كتب العربية". بيد أن بعض المفسرين جعل من تفسيره ميداناً لتطبيقات النحويين وخلافاتهم، وربما ذكر الوجوه الغريبة فى الإعراب حرصاً منه على بيان كل ماتحتمله الآية من إعرابات، وإن لم يكن السياق شاهداً لها ! .. ولايعنى ذلك أن يهمل المفسر الناحية البلاغية أو النحوية تماماً، ولكن **المنهج السديد** يلزم المفسر أن يأخذ من ذلك بمقدار الضرورة، فيبين المفسر من وجوه البلاغة، وضروب الإعراب بقدر مايحتمله المعنى، وعلى الوجه الذى يليق بفصاحة القرآن وبلاغته، وذلك بدون أن يتجاوز مقدار الحاجة. (وإذا أعرب آية أعربها على أظهر محتملاتها وأرجحها)[3]. وأن لايعرب القرآن إلا بالأفصح الصحيح، وأن يجتنب الغريب

(١) انظر: " كيف نتعامل مع القرآن " للشيخ محمد الغزالى (ص٢٥٥) ط: المكتب الإسلامى.

(٢) فى ظلال القرآن لسيد قطب، مقدمة الطبعة الأولى.

(٣) التحبير فى علم التفسير لسيوطى(٣٢٥)

والشاذ من الأعاريب[1] قال أبو حيان: ينبغى أن يحمل على أحسن إعراب، وأحسن تركيب ؛ إذ كلام الله تعالى أفصح الكلام، فلا يجوز فيه جميع مايجوزه النحاة، من سلوك التقادير البعيدة، والتراكيب القلقة، والمجازات المعقدة[2]. ونحن فى التفاسير المعاصرة نلاحظ الاعتدال فى الحديث عن مباحث النحو المتعلقة بآيات الكتاب، وذلك ما نرجو أن يكون سائداً فيما يَجدُّ من التفسيرات؛ لأن إيضاح المكنون من كتاب الله هو الأصل، ولانحتاج إلى النحو إلا بقدر مايكون عوناً على الإيضاح فحسب، وماعد ذلك فإطناب فى غير مجال.

- كما أن تقرير أصول العقيدة أمر مهم بالنسبة للآيات التى تبحث فى قضايا التوحيد، ولكن ذكر القضايا الكلامية والمناقشات الفلسفية ليس موضعه كتب التفسير، وهو أمر خارج عن نطاق هذا العلم الشريف. (والتفاسير التى سلك فيها أصحابها هذا المسلك زهدت الكثيرين فى النظر فيها والإفادة منها ؛ لأنها خرجت فى غالب مااحتوته عن مقاصد القرآن، وفتحت باب الجدل فى المسائل الكلامية، وجعلت القرآن ميداناً لها، تحمل آياتها عليها حملاً، وتنزل فى فهمها على ماتقتضيه مسائلهم وقواعدهم، حتى إن الناظر فى تلك الكتب يظن أن القرآن الكريم كتاب من كتب فلسفة الكلام، نزل ليفتح ميداناً للجدل، وليس كتاب هداية نزل ليبعث اليقين

(١) انظر: البرهان فى علوم القرآن للزركشى (٢/) و" أنواع التصنيف)د/مساعد الطيار (ص٦٦)

(٢) البحر المحيط ١٢/٠١-٢٠٧) بتلخيص يسير.

والسكينة فى القلوب[1].

-ومن المفسرين من استرسل فى ذكر الأحكام الفقهية أثناء تفسيره لآيات الأحكام وغيرها حتى يخرجه ذلك عن مقاصد القرآن وهداياته، ويتجلى هذا فى المفسر الذى غلب عليه الجانب الفقهى فى تخصصه العلمى، فتراه يكاد يسرد فى تفسيره الفقه من باب الطهارة إلى أمهات الأولاد، وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التى لاتعلق لها بالآية، والجواب عن أدلة المخالفين، كما فعل القرطبى فى تفسيره[2].

وقد تجد تكلفاً فى ذكر بعض الأحكام الفقهية، ولو كانت الإشارة إليه باللفظ فقط !. وهو مسلك غير مرضٍ فى منهجية التفسير؛وقد استنكره واعترض عليه أبو حيان بقوله: وقد تعرض المفسرون فى كتبهم لحكم التسمية فى الصلاة، وذكروا اختلاف العلماء فى ذلك، وأطالوا التفاريع فى ذلك، وكذلك فعلوا فى غير ماآية، وموضوع هذا كتب الفقه !. وكذلك تكلم بعضهم على التعوذ، وعلى حكمه، وليس من القرآن بإجماع !. وقد تكلم بعض الناس على أحكام السكنى والعمرى والرقبى، وذكر كلام الفقهاء فى ذلك واختلافهم، حين فسر قوله تعالى: (**اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ**)[البقرة: ٣٥]، وليس فى الآية مايدل على شىء مما ذكر !![3].

(١) انظر: القرآن الكريم هدايته وإعجازه للعلامة الصادق عرجون(ص٢١٤) بتصرف وتلخيص.

(٢) انظر: الإتقان (١٢٣٦/٢)

(٣) انظر: البحر المحيط لأبى حيان (٣٢/١-٢٣٥).

وبعضهم طوَّع الآيات لأحكام الفقهاء وطريقتهم فى الاستنباط، وكان جلّ اهتمامهم بآيات الأحكام التشريعية، وبعضهم اقتصر فى ذلك على الحكم الشرعى، دون النظر إلى المقاصد الأخرى، وهذا شىء يستدعى الاستدراك ؛ لأن المنهج الموافق لمفهوم التفسير ألا يتعرض المفسر لحكم شرعى إلا إذا كان لفظ القرآن يدل على ذلك الحكم، أو يمكن استنباطه منه بوجه من وجوه الاستنباطات، وقد أشار إلى ذلك الطبرى وأبو حيان[1]. والمنهج السديد فى التفسير يحتم على المفسر أن ينأى عن ذكر الأمور الافتراضية التى أولع بها الفقهاء، يتخيلون حالات ربما لاتقع، ويذكرون لها الحكم الشرعى، بل يقتصر على ذكر الأحكام الفقهية التى يدل عليها ظاهر النص دون تحيز إلى مذهب وتعصب. وينبغى أن يكون ذلك بإيجاز مناسب.

- **سابعاً: حُسْن التعامل مع الوجوه المحتملة فى تفسير الآية:**

درج كثير من المفسرين على إيراد الوجوه الكثيرة المحتملة فى الآية، وقلَّ أن تجد مفسراً اعتمد قولاً واحداً فى جميع تفسيره، وهذا بحد ذاته مقبول فى التفسير مادام فى إطار ماتحتمله الآية، وله شاهد مستقيم من الشرع، بل هو نوع من التدبر للقرآن المأمور به. والمعهود من ألفاظ القرآن كلها أنها تكون دالة على جملة معان[2]. وقد تقرر عند العلماء أن الآية إن كانت تحتمل معانى كلها صحيحة تعيَّن حملها على الجميع[3].

(١) انظر: تفسيرجامع البيان للطبرى (١٢/١١) تحقيق شاكر، والبحر المحيط لأبى حيان (٣٢/١).

(٢) انظر: جلاء الأفهام (ص٣٠٨).

(٣) انظر: أضواء البيان للشنقيطى (١٢٤/٣) والأقوال الشاذة فى التفسير د/عبد الرحمن =

فالمنهج السديد فى هذا المقام يراعى فيه حمل الآية على أوسع معانيها المحتملة، وهو أولى من حملها على بعض معناها. وفى كثير من الروايات فى المسألة الواحدة عن الصحابة أوالتابعين، أو عن صحابى واحد اختلاف أو تعارض، ولكن التعمق فى هذه الأقوال يقنع بأنها غير متناقضة ولامتعارضة وأنها تعود إلى أصل واحد، وبينهما عموم وخصوص، وقد نبه على مثل هذا الاختلاف الموهوم ابن تيمية وغيره فى رسالته فى أصول التفسير. فالأقوال الصحيحة هى من باب المثالات، كما قال ابن عطية. وهذا كثير من تفسير السلف ؛ يذكرون من النوع مثالاً؛ لينبهوا به على غيره، أو لحاجة المستمع إلى معرفته، أو لكونه هو الذى يعرفه، كما يذكرون مثل ذلك فى مواضع كثيرة، كقوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾[الفتح: ١٦]، وقوله: ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ﴾[الجمعة: ٣]، وقوله: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقوله: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [فاطر: ٣٢] وكذلك تفسير: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ [الفجر: ٣]، و﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: ٣]، وغير ذلك، وأمثال ذلك كثير من تفسيراتهم هو من باب المثال [١]. فأكثر أقوال السلف فى التفسير متفقة غير مختلفة[٢]. وأما إذا لم يستطع المفسر التوفيق بينها فلينظر فى أسانيدها، فإن وجدت بدرجة من الصحة متقاربة نظر فيها وأخذ مايكون أقرب لنص الآية. (والمنهج السديد يفرض على المفسر أن لايكثر من الأقوال المحتملة

=

الدهش (ص٣٦).

(١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٢٨١/١٦) والفتاوى لابن تيمية (٩١/١٦).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣٩٠/٦).

البعيدة والتفاسير الغريبة[1].

- **ثامناً: الالتزام بفهم القرآن من خلال معهود العرب فى الخطاب:**

للقرآن عرف خاص ومعان معهودة لايناسبه تفسيره بغيرها، ولايجوز تفسيره بغير عُرْفه، والمعهود من معانيه. فتدبر هذه القاعدة، ولتكن منك على بال؛ فإنك تنتفع بها فى معرفة ضعف كثير من أقوال المفسرين وزيفها، وتقطع أنها ليست مراد المتكلم تعالى بكلامه[2] فقد فسر قوم القرآن بمجرد مايُسوّغ أن يريده بكلامه من كان من الناطقين بلغة العرب، من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن والمنزل عليه والمخاطب به[3].

وقرر الشيخ/محمد عبده أن كثيراً مايفسر المفسرون كلمات القرآن بالاصطلاحات التى حدثت فى الملة بعد القرون الثلاثة الأولى، فعلى المدقق أن يفسر القرآن بحسب المعانى التى كانت مستعملة فى عصر نزوله[4]. ومثال ذلك: كلمات وردت فى القرآن والسنة، اختلفت معانيها باختلاف الزمان، وعلى المفسر المتقن أن يتنبه إلى هذا الاختلاف، ومن ذلك: كلمة الولى التى جاءت فى القرآن بمعنى الناصر؛ كما فى قوله: (فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ)[يونس: ٩]، ثم أصبح لها فى العرف معنى آخر وهو ذو الكرامات من المشايخ.

- ومن ذلك أيضاً كلمة (الغداء) وهو طعام الغدوة، وهو أول النهار،

---

(١) التحبير فى علم التفسير للسيوطى(٣٢٥)

(٢) انظر: بدائع الفوائد (٢٧/٣) بتلخيص.

(٣) انظر: مقدمة فى أصول التفسير (ص٤٤)

(٤) انظر: الأعمال الكاملة للشيخ /محمد عبده (١٠/٤) تفسير المنار (٢٢/١).

قال تعالى فى سورة الكهف فى قصة موسى والخضر: (قَالَ لِفَتَاهُ آَتِنَا غَدَاءَنَا) [آية: ٦٢]، قال الراغب: " الغدوة والغداة من أول النهار، والغداء طعام يتناول فى ذلك الوقت ". فتسمية الناس اليوم للطعام الذى يؤكل بعد الظهر غداء، مخالف لاستعمال العرب ؛ لأن العرب لم يكونوا يأكلون فى وقت الظهر، وليس فى لغتهم اسم لطعام يؤكل وقت الظهر، ولم يكونوا يأكلون بالليل، ولذلك لايوجد فى لغتهم اسم لطعام يؤكل بالليل، وإنما كان عندهم غداء وعشاء، فالغداء طعام أول النهار، والعشاء طعام العشى، وفيما سوى هذين الطعامين لا يتقيد الأكل بوقت معتاد، متى جاع الإنسان أكل(١).

فالمنهج السديد يلزم طالب التفسير أن يفهم لغة القرآن الكريم عن طريق استعمالات العرب الأولين وتعبيراتهم، وأن يعتمد كلياً - على آثار الصحابة والتابعين (٢).

ومما يساعد المفسر على تحقيق المنهج السديد إلمامه بلغة العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام، أى فى عهد الرسالة ونزول القرآن ؛ لأن من العبارات التى وردت فى القرآن عبارات لايستطيع فهمها إلا على ضوء ماكان العرب يتحدثون به فى جاهليتهم ؛ ليتسنى التفسير على منهج واضح سليم. قال الزهرى: أخطأ الناس فى كثير من تأويلات القرآن ؛ لجهلهم بلغة العرب(٣).

(١) انظلر: كتاب تقويم اللسانين، د/ محمد تقى الدين الهلالى (ص٨٧) ط: دار المعارف، الرباط.

(٢) انظر: الفوز الكبير فى أصول التفسير (ص١٨٨) ط: الصحوة.

(٣) انظر: مشكاة الأنوار ليحى العلوى (ص١٤٨).

- **تاسعاً: ألا يسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية:**

اللغة العربية هى لغة القرآن، ومن ثمَّ كان أحد أوجه التفسير الصحيحة هو النظر فيما دلت عليه اللغة، وعرفه العرب من لغتهم. بيد أن اعتماد المفسر على النظر المجرد للغة دون غيرها من مصادر التفسير يؤدى إلى الشطط فى القول، والإنحراف عن المنهج السديد فى التفسير. واشتد نكير ابن جرير الطبرى على من يفسر كلام الله تعالى معتمداً على ماورد لغة من غير مراعاة للسياق، وماصح من المنقول؛ لأن الكلمة يحكمها سياقها، وإن كانت الكلمة المجردة عن سياقها قابلة للمعنى المذكور، ولها تعلق بيّن باللغة. فمثلاً عند تفسيره قوله تعالى: ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾[يوسف: ٤٩] يقول: وكان بعض من لا علم له بأقوال السلف من أهل التأويل ممن يفسر القرآن برأيه على مذهب كلام العرب يوجه معنى قوله: "وفيه يعصرون" إلى: وفيه ينْجون من الجدب والقحط بالغيث !. وذلك تأويل يكفى من الشهادة على خطئه خلافه قول جميع أهل العلم من الصحابة والتابعين ... [١]. فالمنهج السديد فى التفسير يوجب على المفسر ألايسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية، من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة، ومافيه من الاختصار والحذف، والإضمار، والتقديم والتأخير. فمن لم يحكم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعانى بمجرد فهم العربية كثر غلطه، ودخل فى زمرة من فسر القرآن بالرأى المذموم [٢].

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٢٣٣/١٢ط: شاكر)

(٢) انظر: مقدمة تفسير القرطبى (٦٨/١).

- **عاشراً: اجتناب الخوض فى غيبيات القرآن:**

فى القرآن غيب من الغيب الذى استأثر الله تعالى بعلمه، وعلم بحكمته أن لاجدوى للبشر فى معرفة كنهه وطبيعته، فلم يهب لهم القدرة على إدراكه والإحاطة به. ومن ثمَّ .. لم يَعُدْ للعقل البشرى أن يخوض فيما استأثر الله به من غيب كتابه المكنون ؛ لأنه لايملك الوسيلة للوصول إلى شىء من أمره، وكل جهد يبذل فى هذه المحاولة هو جهد ضائع ذاهب سدى، بلا ثمرة ولاجدوى[1].

فالمنهج السديد للمفسر يوجب عليه اجتناب الخوض فى الكلام عن الأمور الغيبية، التى لاتعرف إلا من جهة النصوص الشرعية الصحيحة، والإيمان بما جاء من ذلك مجملاً. وهذا منهج سليم، يقف حاجزاً منيعاً دون تسرب شىء من خرافات الغيب المظنون إلى المعقول والعقائد، فما أغفل ذكره فى الكتاب ولم يرد بيانه فى سنة صحيحة، فلا يفصل القول فيه، ولايعمد إلى روايات ضعيفة أو مختلقة مكذوبة يشغل بها عباد الله عن الحقائق والأوامر والنواهى. جاء فى الإتقان: وكل متشابه فى القرآن عن أهل الحق، فلا مساغ للإجتهاد فى تفسيره، ولاطريق إلى ذلك إلا بالتوقيف، بنص من القرآن أو الحديث، أو إجماع الأمة على تأويله. قال الشافعى: لايحل تفسير المتشابه إلا بسنة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو خبر عن أحد من الصحابة، أو إجماع العلماء[2].

(١) انظر: تفسير الظلال (٥٩/١) بتصرف وتلخيص.

(٢) البرهان (٣٠٧/٢) الإتقان (١٢١٤/٢-١٢١٨).

وقال الماوردى فى تفسيره: مااختص الله تعالى بعلمه، كالغيوب فلا مساغ للاجتهاد فى تفسيره ولايجوز أن يؤخذ إلا عن توقيف من أحد ثلاثة أوجه: إما من نص فى سياق التنزيل، وإما عن بيان من جهة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإما عن إجماع الأمة على مااتفقوا عليه من تأويل، فإن لم يرد فيه توقيف علمنا أن الله تعالى أراد لمصلحة استأثر بها، ألا يطلع عباده على غيبه[1].

فالمنهج السديد يحتم على المفسر عدم الخوض فى الغيبيات التى لم نحط بها علماً، وتفويض الأمر إلى عالمها سبحانه وتعالى، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾[الإسراء: ٨٥]، نرى الإرشاد الإلهى لخير خلقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فى شأن الروح أن يوكل أمرها إلى الله، فإنه لم يؤت من علمها شيئاً، فما بالك بمن هو دونه من البشر ؟. وبالرغم من هذا نجد الفخر الرازى عند تفسير الآية حشر أقوالاً عدة تتعلق بماهية الروح، ومدى علاقتها بالبدن، ونحو ذلك!!.

- **الحادى عشر: التحاشى عن غرائب القصص والتفاصيل الجزئية:**

القرآن الكريم لم يتعرض للقصص الغريبة، كما أنه لم يذكر من القصص المشهورة إلا الأجزاء الضرورية التى تنفع فى التذكير والموعظة، ولم يستقص جميع التفاصيل الخاصة التى تشتمل عليها القصص. وحكمة هذا الأسلوب القرآنى، وهو الاكتفاء بالأجزاء المهمة من القصة والتحاشى عن غرائب القصص والتفاصيل الجزئية ؛ لأن العامة من الناس عندما

(١) مقدمة تفسير الماوردى "النكت والعيون " (١/٣٧).

يسمعون حكاية غريبة أو قصة كاملة بجميع خصوصياتها وفصولها، فإن طباعهم تميل إلى نفس القصة وتولع بها، ويفوت الغرض الأساسى- وهو التذكير- من بيان القصة الذى يهدف إليه القرآن الكريم [1]. يقول الشيخ محمد عبده:

ليس القرآن تاريخاً ولاقصصاً، وإنما هو هداية وموعظة، فلا يذكر قصة لبيان تاريخ حدوثها، ولا لأجل التفكه بها أوالإحاطة بتفاصيلها، وإنما يذكر مايذكره لأجل العبرة، كما قال: " لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب " [يوسف: ١١١]، وبيان سنن الاجتماع كما قال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[آل عمران: ١٣٧]، وغير ذلك من الآيات، فمحاولة جعل قصص القرآن ككتب التاريخ، بإدخال مايروونه فيها على أنه بيان لها، هى مخالفة لسنته، وصرف للقلوب عن موعظته، وإضاعة لمقصده وحكمته، فالواجب أن نفهم مافيه، ونعمل أفكارنا فى استخراج العبرة منه، ونزع نفوسنا عما ذمه وقبحه، ونحملها على التحلى بما استحسنه ومدحه[2].

- وينبغى أن يعلم أن قصص الأنبياء السابقين لم تذكر فى الأحاديث الصحيحة إلا قليلاً، وأن هذه القصص الطويلة العريضة التى يتجشم روايتها المفسرون ويحكونها فى تفاسيرهم كلها منقولة عن أهل الكتاب إلا ماشاء الله تعالى، وأكثره مما لاأصل له، بل أكثره مما يستحيل حدوثه، ومع ذلك تداول

(١) انظر: الفوز الكبير للدهلوى (ص٦٦)بتلخيص يسير.

(٢) انظر: تفسير المنار (٢/٣٧٣))بتلخيص.

تكراره لدى المفسرين شارحاً بعد شارح [1].

وألمح الشوكانى إلى أن جماعة من الذين لاعلم لهم بصحيح الرواية من ضعيفها من موضوعها تصدروا للتصنيف، والتفسير للكتاب العزيز، فأدخلوا هذه الخرافات المختلفة، والأقاصيص المنحولة، والأساطير المفتعلة، فى تفسير كتاب الله تعالى، فحرفوا، وغيروا، وبدلوا[2]. فالمنهج السديد والأسلوب الأمثل فى تعامل المفسر مع القصص القرآنى أن يقتصر على إبراز ماتضمنته من عبر وعظات وآيات بينات، دون أن يسترسل فى الحديث عن جزئيات القصة وسرد أخبارها، وهو بذلك يتمثل موقف القرآن ويسير مع الغرض الأساسى والغاية الأصيلة من سرد القصص فيه[3].

- **الثانى عشر: تجنب التعبير بالزائد فى حروف القرآن:**

ومن التعبيرات التى ينبغى أن يتحاشاه المفسر فى منهجه السديد عند تفسيره للقرآن، القول بالزائد فى حروف القرآن. فلايوجد فى القرآن حرف زائد، بل كل حرف له وزنه وتقديره ومعناه، والحروف التى يسميها النحويون زائدة، هى زائدة عندهم فى الإعراب، أما فى النظم المعنوى والبلاغى فهى ليست زائدة. يقول ابن تيمية: القرآن ليس فيه لفظاً زائداً، إلا لمعنى زائد وإن كان فى ضمن ذلك التوكيد، ومايجىء من زيادة اللفظ فى مثل قوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ﴾[آل عمران: ١٥٩]، وقوله: ﴿ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ

(١) انظر: المرجع السابق (ص٩٧).

(٢) انظر: تفسير فتح القدير للشوكانى (٥/٥٣٧).

(٣) انظر: الفوز الكبير للدهلوى (ص٧٠).

نَادِمِينَ ﴾[المؤمنون: ٤٠] وقوله: ﴿ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾[الأعراف: ٣]، فالمعنى مع هذا أزيد من المعنى بدونه، فزيادة اللفظ لزيادة المعنى، وقوة اللفظ لقوة المعنى(١). وزيادة "ما" بين الباء وعن ومن والكاف ومجروراتها أمر معروف فى اللسان العربى مقرر فى علم العربية(٢).

- **الثالث عشر: الإيمان بآيات الصفات مع تفويض العلم بحقيقتها إلى الله:**

وردت ألفاظ ومعان لأسماء الله تعالى وصفاته فى القرآن والسنة وهى شبيهة بأسماء العباد وصفاتهم من حيث الظاهر، ولكنها من حيث الحقيقة تختلف عنها تماماً، فحقيقة الخالق وصفاته ليست كحقيقة المخلوق وصفاته. والعلماء الراسخون فى العلم يفرقون بين معانيها، ولكن الحقيقة نفسها تبقى من التأويل الذى لا يعلمه إلا الله تعالى، ومن المغيبات التى استأثر الله بعلمها، فذات الله وحقائق صفاته لا يعلمها إلا الله.

وهذا موقف علماء السلف من آيات الصفات، الإيمان بها مع تفويض معرفة كيفيتها إلى الله تعالى. وعلماء الخلف يرون تأويلها بما يليق بجلال الله تعالى، مع تفويض العلم بحقيقتها، والمراد منها إلى الله تعالى(٣).

وتوسط بعضهم فرأى أن الصفات المشْكَلَة حق وصدق على المعنى الذى أراده الله، ومن تأولها نظرنا؛ فإن كان تأويله قريباً على مقتضى لسان العرب لم ننكر عليه، وإن كان بعيداً توقفنا عنه، ورجعنا إلى التصديق مع

(١) الفتاوى (١٦/٢٩٧).

(٢) إعراب القرآن للدرويش (٢/٨٨).

(٣) انظر: البرهان فى علوم القرآن(٢/٢٠٨) والإتقان (١/٦٥١).

التنزيه، وماكان منها بعيداً ظاهراً، مفهوماً من تخاطب العرب حملناه عليه، كقوله: (على مافرطت فى جنب الله)[الزمر: ٥٦]، فإن المراد به فى استعمالهم الشائع: (حق الله) فلا يُتوقف فى حمله عليه، وكذا قوله تعالى: (فأتى الله بنيانهم من القواعد)[النحل: ٢٦]، معناه: خرَّب الله بيوتهم، وقوله: (إنما نطعمكم لوجه الله)[الإنسان: ٩]، معناه: لأجل الله، وقس على ذلك، وهو تفصيل بالغ قلَّ من يتيقظ له[١]. وهذا مذهب وسط أولى فى الإعتماد عليه والركون إليه عند تعامل المفسر مع آيات الصفات فى القرآن لتحقيق المنهج السديد فى التفسير، والله أعلم.

- **الرابع عشر: عدم تفسير الآيات الكونية إلا باليقين الثابت من العلم:**

راجت فى عصرنا الحاضر تفسيرات يريد أهلها من ورائها أن يحملوا آيات القرآن كل العلوم، ماظهر منها ومالم يظهر !. كأن هذا فيما يبدوا وجه من وجوه إعجاز القرآن وصلاحيته لأن يتماشى مع الزمن. والحق أن هذا غلو منهم واسراف، يخرج القرآن عن مقصده الذى نزل من أجله، ويحيد به عن هدفه الذى يرمى إليه[٢].

والقرآن الكريم كتاب هداية وتشريع، وليس كتاباً لتفصيل العلوم والفنون[٣]، وليس كتاب نظريات علمية، ولم يجىء ليكون علماً تجريبياً كذلك، إنما هومنهج للحياة كلها، منهج لتقويم العامل ليعمل وينطلق فى

(١) انظر: فتح البارى (٣٨٣/١٣) والإتقان (٦٥١/١).

(٢) انظر: " التفسير والمفسرون " (١٤٨/١).

(٣) مقدمة تفسير المنار (٢٢/١) بتصرف وتلخيص.

حدوده، ولتقويم المجتمع ليسمح للعقل بالعمل والانطلاق، دون أن يدخل فى جزئيات وتفصيليات علمية بحتة، فهذا متروك للعقل بعد تقويمه وإطلاق سراحه[1].

وبناء على هذا فإن المنهج السديد فى التفسير يلح على المفسر الاستفادة من العلوم الحديثة وماتوصلت إليه من الحقائق القطعية التى ثبتت دون أن يكون هناك تكلف فى تحميل النص مالايحتمل، لكن يجب أن ننبه إلى أمرين هامين فى هذا المقام:

الأول: أنه لاينبغى فى فهم الآيات الكونية من القرآن الكريم أن نعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا قامت القرائن الواضحة التى تمنع من حقيقة اللفظ وتحمل على مجاز، إن مخالفة هذه القاعدة الأصيلة البسيطة قد أدت إلى كثير من الخطأ فى التفسير.

الأمرالثانى: لا ينبغى أن نفسر كونيات القرآن إلا باليقين الثابت من العلم، لابالنظريات ولابالفروض؛ "لأنه لايجوز تأويل نص دينى قطعى الرواية والدلالة فى خبر عن عالم الغيب من الوحى الإلهى، لنظرية ظنية فى عالم الشهادة من الرأى البشرى". إن الحقائق هى سبيل التفسير الحق، هى كلمات الله الكونية وينبغى أن يفسر بها نظائرها من كلمات الله القرآنية، أما الحدثيات والظنيات فهى عرضة للتصحيح والتعديل إن لم يكن للإبطال فى أى وقت، فسبيلها أن تعرض على القرآن بالقاعدة السابقة ليتبين مبلغ قربها منه، أو بعدها عنه، وعلى مقدار مايكون بينها وبينه من اقتراب، يكون حظها

(١) تفسير الظلال (٤/٢٣٧٦).

من الصواب[1].

- **الخامس عشر: تجنب تأويل الآيات بالشطحات من الإشارات**[2]:

ذكر الإمام الزركشى أن فى القرآن علم الأولين والآخرين، ومامن شىء إلا ويمكن استخراجه منه لمن فهمه الله تعالى)اهـ[3]. وهذا مانراه جلياً فيما ثبت من قول ابن مسعود: إن الله عَزَّوَجَلَّ أنزل فى الكتاب تبياناً لكل شىء، ولكن علمنا يقصر عما بين لنا.

ثم قرأ: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ) [النحل: ٨٩] [4].

وقال: "من أراد العلم فليثور القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين"[5].

أى: يتفكر فى معانيه وتفسيره وقراءته[6]. فكم من معان دقيقة من أسرار القرآن تخطر على قلب المتجردين للذكر والفكر تخلو عنها كتب التفاسير، ولايطلع عليها أفاضل المفسرين، وإذا انكشف ذلك للمريد

(١) انظر: تفسير المنار (٣٦٥/١١) والظلال (٢٣٧٦/٤) والتفسير القرآنى د/محمد البيومى (٣٧/٢).

(٢) والمقصود بالشطحات التأويلات الغريبة والتفسيرات البعيدة التى لاوجه لها من القبول.

(٣) انظر: البرهان فى علوم القرآن (٣٢٠/٢).

(٤) رواه البخارى فى التاريخ الكبير كتاب الكنى (٤٤/٨).

(٥) رواه الطبرانى بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح. المجمع (١٦٥/٧) وانظر المطالب العالية (٣٠٧٩)

(٦) انظر: النهاية فى غريب الحديث مادة [ثور].

المراقب وعرض على المفسرين استحسنوه، وعلموا أن ذلك من تنبيهات القلوب الزكية، وألطاف الله تعالى بالهمم العالية المتوجهة إليه[1]. ولاحرج على فضل الله تعالى فى تفهيمه بعض عباده أفهاماً يستنبطها من وراء فهمه لتفسير آيات الله، وإنما ينكشف لهؤلاء من أسرار القرآن بقدر غزارة علومهم، وصفاء قلوبهم، وتوفُّر دواعيهم على التدبر، وتجردهم للطلب[2]. وقد يستأنس لذلك بما نقل عن ابن عباس فى تفسير سورة (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) بمجلس عمر بن الخطاب ومشهد من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[3] حيث فسر الآية بأنه أجل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعلمه الله له. فقال عمر: ماأعلم منها إلا ماتعلم [4]. وعلَّق الحافظ على ذلك بقوله: فيه جواز تأويل القرآن بما يفهم من الإشارات، وإنما يتمكن من ذلك من رسخت قدمه فى العلم ؛ ولهذا قال على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أو فهماً يؤتيه الله رجلاً فى القرآن[5].

ولما نزلت هذه الآية (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) بكى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ما يبكيك" ؟ قال: "يا رسول الله، أبكانى أنَّا كنا فى زيادة من ديننا، فأما إذ كَمُل فإنه لم يكمل شىء قط إلا نقص.

(١) انظر: إحياء علوم الدين (١/١٣٢).

(٢) انظر: إحياء علوم الدين (١/٣٤٦).

(٣) القرآن العظيم هدايته وإعجازه للصادق عرجون (ص٢١٩).

(٤) رواه البخارى كتاب التفسير باب: قوله (فسبح بحمد ربك واستغفره). وانظر الدر المنثور(٦/٦٩٨).

(٥) فتح البارى (٨/٦٠٨) وحديث على رواه البخارى كتاب العلم باب: كتابة العلم.

قال: "صدقت"[1].

بيد أن من أعطى فهماً وعلماً من لدنه تعالى يكون الضابط فى صحة هذا الفهم، أن لايرفع ظاهر المعانى المنفهمة عن الألفاظ بالقوانين العربية، وأن لايخالف القواعد الشرعية، ولايباين إعجاز القرآن، ولايناقض النصوص الواقعة فيها، فإن وجدت فيه هذه الشرائط فلا طعن فيه وإلا فهو بمعزل عن القبول[2].

وقد جعل ابن القيم هذا النوع من التفسير قسيماً للتفسير على اللفظ، والتفسير على المعنى، وشرط لصحة ذلك أربعة شروط:

١. ألا يناقض معنى الآية.
٢. أن يكون معنى صحيحاً فى نفسه
٣. أن يكون فى اللفظ إشعار به.
٤. أن يكون بينه وبين معنى الآية إرتباط وتلازم، فإذا اجنمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطاً حسناً[3].

وبناء على هذا يمكن القول: إن ما يقع فى القلوب من الإلهامات، والكشوف، التى يكثر وقوعها عند الصوفية ونحوهم، لاتدل بمجردها على أنها حق، ولاتصدق حتى تعرض على كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

(١)رواه ابن أبى شيبة فى المصنف (٣٥٥٤٩) ابن جرير (٨٠/٦) وهو مرسل حسن، وقال ابن كثير: ويشهد لهذا المعنى الحديث الثابت " بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ".

(٢) تفسير فتح البيان (١٣/١).

(٣) التبيان فى أقسام القرآن (ص٥١).

فإن شهدا لها بالقبول، قبلت، وإن ناقضتها ردت، وإن لم يعلم شى من ذلك، توقف فيها[1].

(١) تفسير ابن ناصر السعدى (٣٤١).

الخاتمة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وآله وصحبه ومن ولاه، وبعد:

فهذا ما أداه إلى اجتهادى لرسم معالم المنهج السديد فى تفسير القرآن، ولاأدعى الإحاطة فى بحثى هذا بجميع جوانب المنهج الأمثل فى التفسير بنوعيه، وإنما هى إلماعة خاطفة حاولت فيها قدر جهدى، إبراز أهم سمات المنهج السديد وضوابطه التى ينبغى أن تتوفر فى التفسير بالمأثور والتفسير بالرأى. والتأكيد على أن الاعتصام بحبل الله تعالى يتطلب العمل الجاد السريع فى إبراز أهداف القرآن الكريم بتفسير سهل واضح خال من الموضوعات والإسرائيليات والخلافات المذهبية، والتطبيقات العربية التى اتصلت به، وحُشِرَت فى تفسيره حشراً، شغل الناس بها عن معرفة هدايته وإرشاده.

وتقرير أن المسلمين اليوم محتاجون إلى من يقرب لهم مناهج الحق وسبل الخير التى جاءت فى الكتاب العزيز، ومحتاجون إلى معرفة الهداية التى قررها القرآن .. فهم بحاجة إلى تفسير يسيرُ مؤلفه على نهج مستقيم رشيد، يُتجنّب فيه الاستطرادات النحوية، والمصطلحات البلاغية، والتفريعات الفقهية، إلا مادعت إليه الضرورة، وغير ذلك مما أثبته فى تضاعيف البحث، والله من وراء القصد وهو يهدى السبيل.

ا. د/ نادى محمود حسن
أستاذ التفسير بجامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية بنين بأسوان

أهم مصادر البحث

م	الكتاب	المؤلف	الطبعة
١	الاتقان	الإمام جلال الدين السيوطي	دار ابن كثير
٢	البرهان في علوم القرآن	الإمام برهان الدين الزركشي	دار المعرفة
٣	البيان النبوى	د/ محمد رجب البيومى	دار الوفاء.
٤	التحرير والتنوير	العلامة الطاهر بن عاشور	دار سحنون.
٥	تفسير المنار	محمد رشيد رضا	الهيئة العامة للكتاب.
٦	التفسير القرآنى	د/ محمد رجب البيومى	مجلة الأزهر.
٧	التفسير والمفسرون	د/ محمد حسين الذهبى	مكتبة وهبة.
٨	الدر المنثور	جلال الدين السيوطي	دار الكتب العلمية
٩	روح المعاني	شهاب الدين الآلوسي	الأميرية
١٠	فتح القدير	محمد بن على الشوكانى	دار المعرفة.
١١	مجموع الفتاوى	أحمد بن تيمية	دار الوفاء.
١٢	مقالات فى علوم القرآن	د/مساعد الطيار	دار المحدث.
١٣	مقدمة فى أصول التفسير	أحمد بن تيمية	دار التراث الإسلامى.

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع **الصفحة**

ملخص البحث ١٩
المقدمة ٢١
التعريف بمصطلح الدراسة ٢٣
شروط وآداب لتحقيق المنهج السديد فى التفسير ٢٥
المبحث الأول: المنهج السديد فى التعامل مع التفسير المأثور ٣٢
رسم معالم المنهج السديد فى التعامل مع التفسير المأثور ٣٣
وجوب التثبت من صحة الأخبار ونسبتها إلى قائليها ٣٣
المنهج السديد فى التعامل مع الإسرائيليات ٣٥
المنهج السديد فى باب أسباب النزول ٣٧
المنهج السديد فى باب الناسخ والمنسوخ ٣٩
المنهج السديد فى التعامل مع القراءات القرآنية ٤٤
المنهج السديد فى التعامل مع أحاديث فضائل السور ونحوها ٤٧
المبحث الثاتى: المنهج السديد فى التفسير بالرأى المحمود ٤٩
الخاتمة ٧٤
فهرس مصادر البحث ٧٥
فهرس الموضوعات ٧٦